كتاب
النفحة الزكية
فى تاريخ مصر واخبار الدولة الاسلامية

(وهو ينقسم الى جزئين)

الاول فى تاريخ مصر قبل الاسلام والثانى فى تاريخها بعد الاسلام

تأليف

حضرة محمد افندى زكى ناظر المدرسة المحمديه

قررت نظارة المعارف العموميه بتاريخ ١٧ دسمبر سنة ١٨٩٢ نمرة ٢٨٩
لزوم طبع هذا الكتاب على نفقتها واستعماله بالمدارس الابتدائيه
بعد نظره بمعرفة اللجنة المشكلة بالنظاره

(الطبعة الاولى)

...بولاق مصر المحميه

... ١٨٩٣

...يه

كتاب

النفحة الزكية

فى تاريخ مصر واخبار الدولة الاسلامية

(وهو ينقسم الى جزئين)

الاول فى تاريخ مصر قبل الاسلام . والثانى فى تاريخها بعد الاسلام

تأليف

حضرة محمد افندى زكى ناظر المدرسة المحمديه

قررت نظارة المعارف العموميه بتاريخ ١٧ دسمبر سنة ١٨٩٢ نمرة ٢٨٩
لزوم طبع هذا الكتاب على نفقتها واستعماله بالمدارس الابتدائيه
بعد نظره بمعرفة اللجنة المشكلة بالنظاره

(الطبعة الاولى)

بالمطبعة الكبرى الاميريه ببولاق مصر المحميه

سنة ١٨٩٣

افرنجيه

الجزء الاول
فى تاريخ مصر قبل الاسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك يامن زينت عرائس الاثر بلطائف الغرر وبهرجت كواعب السير بطرائف الطرر ونصلي على من قص علينا من الحكم آيات وسورا وتلا لنا من المواعظ أشكالا وصورا وعلى آله الرواة الثقاة وأصحابه أولى العزم والثبات ماالتصات عين بنظر وسمعت أذن بخبر (أما بعـــد) فلما كان التاريخ آية تتلاعب بالفكر ومرآة ترتسم فيها صور العبر وملعبا تتلاعب فيـه العقول وميدانا تتسابق فيه الفحول ولم أجد مع كثرة كتبه مايشـفي العله ويروى الغـله لدورانهـا بين اختصار مخل وتطويل ممل جمعت هـذا المختصر من صحيح الاثر وحقائق الخبر وأودعتـه من الانباء مافيه مزدجر ونزهته عن الخرافات وبرأته من الترهات وجنبته كل مبتذل شائع كوصف الملوك والوقائع وضمنته تاريخ من ملكوا مصر من الفراعنة الاول ومابعدهم من الملوك والدول مبينا فيه أسباب ارتفاع كل دولة وانخفاضها وأسباب وجودها وانقراضها فجاء والحمد لله فريدا في بابه مفيدا لطلابه صحيح الاثر صادق الخبر جعله الله هاديا للعباد ودليلا للرشاد دائم النفع بدوام مليكنا الاكرم وعزيز مصرنا الافخم من رفع عرش المجد على أرفع المباني (خديونا الاعظم عباس باشا الثاني) ماترنمت الادباء بصحيح الانباء

المقـــــدمة

(وتشـتمل عـــلى مقالتـــين)

قد كانت مصر أولا مدة الفترة التاريخية محكومة بطائفة القسس ثم ظهر رجل من مدينة طينه يدعى منا فى نحو سنة ٥٦٢٦ ق ه فتغلب على الكهنة ونزع الحكم من أيديهم وأسس عصر الملوكية المصريه التى مكثت أكثر من أربعة آلاف سنة تحت حكم احدى وثلاثين عائلة من الملوك الذين يقال لهم الفراعنة وهم ملوك مصر القدماء غير أن هــذه المدة يتخللها بعض اغارات أجنبية كونت بعض عائلاتها وهى اغارات الملوك الرعاه والايتيوبيين والاشوريين والعجم ثم تغلب عليها الاسكندر الاكبر فصارت جزأ من الدولة المقدونية وبعد موته وقعت فى قبضة بطلموس أحد ملوك الطوائف فأسس فيها الدولة البطلموسية فلم تزل فى حكم اليونانيين حتى تغلب عليها الرومانيون فصارت ايالة رومانية تابعة أولا لمدينة رومه ثم لمدينة القسطنطينية لما انقسمت الدولة الرومانية الى دولة رومانية شرقية والى دولة رومانية غربية وقبل أن نشرع فى التكلم على هذه العائلات نذكر أولا وصف مصر الجغرافى وأقسامها القديمة ومنشأ المصريين القدماء وأقسامهم وهيئة حكومتهم وتمدنهم ومعتقداتهم فنقول

(المقـالة الاولى)

(فى وصف مصر الجغرافى وأقسامها القديمة ومنشأ المصريين القدماء وأقسامهم)

مصر هى واد ضيق لا يزيد عرضه عن ٤٠ كيلومترا يسقى بماء النيل ويمتد من شلال اصوان الى البحر الابيض المتوسط على طول يبلغ ٨٨٠ كيلومترا منحصرا بين سلسلتين من الجبال الصخرية قليلتى الارتفاع احداهما جهة الشرق تسمى سلسلة جبال العرب وتمتد خلفها الى البحر الاحمر صحراء العرب والاخرى جهة الغرب تسمى سلسلة جبال ليبيا وتوجد خلفها صحراء ليبيا التى تشتمل على خمس واحات أعظمها واحة سيوه وهاتان السلسلتان يقل ارتفاعهما كلما اتجهتا الى جهة الشمـال حتى تنمحيا عند ما تصــلان الى القاهرة فيأخذ وادى النيل فى الاتساع حينئذ ويكون شكل مثلث

كان يعرف قديما بالدلتا عند اليونانيين قاعدته من اسكندرية الى بورسعيد تبلغ ٢٥٠ كيلومترا تقريبا أما نهر النيل فيجرى فى وسط هذا الوادى وكان يصب قديما فى البحر الابيض المتوسط من سبعة أفرع وأما الآن فيصب فيه من فرعين وهما فرع رشيد وفرع دمياط

وكانت مصر تنقسم الى ٤٤ قسما أو مديرية اثنان وعشرون منها فى الوجه البحرى واثنان وعشرون فى الوجه القبلى وهذه الاقسام كانت قبل اجتماع مصر الى مملكة واحدة عبارة عن ممالك صغيرة مستقلة تحت حكم أمراء مستقلين يتولون الامارة بالوراثة فلما اجتمعت مصر وصارت مملكة واحدة كونت كل مملكة من هذه الممالك الصغيرة قسما من أقسام مصر وانما استمر بعضها تحت حكم أمراء من بيوت العائلات الملوكية القديمة يتوارثون الامارة كل فى قسمه ويحكمون بالتبعية لفرعون مصر أى ملك الوجه القبلى والوجه البحرى وأما البعض الآخر من هذه الاقسام فصار يحكم بحكام قابلين للعزل يعينهم الملك حسب ارادته

وأما قدماء المصريين فينسبون الى مصرايم بن حام بن نوح عليه السلام فان بنى حام كانوا قد هاجروا من أوطانهم بآسيا عندما أخذت ذرارى نوح عليه السلام فى الانتشار فى الارض من بعد الطوفان فعبروا برزخ السويس واستوطن منهم أولاد مصرايم بوادى النيل وقد كان هؤلاء المصريون القدماء منقسمين الى خمس طوائف وهى طائفة القسس وطائفة الجهادية وطائفة الزراعين وطائفة الصناع وطائفة الرعاة بحيث ان الابن كان فى الغالب يحترف بحرفة أبيه وكان أعظم هذه الطوائف شوكة واعتبارا طائفة القسس الذين مع اختصاصهم بالامور الدينية كانت فى يدهم ايضا وظائف القضاء فى الحكومة ثم طائفة الجهادية وهكذا وكانت جميع أراضى مصر فى أيدى الملك وأيدى هاتين الطائفتين بحيث ان بقية الاهالى كالزراعين والرعاة مثلا لم يكونوا الا عمالا بالاجرة وكانت حكومة مصر ملوكية مطلقة وملوكها الملقبون بالفراعنة يعتبرون اعتبار الآلهة ويزعمون أنهم من سلالتهم

(المقالة الثانية)

(فى تمدن قدماء المصريين وبيان معتقداتهم)

قد بلغ المصريون أقصى درجات التمدن من قبل الهجرة بنحو الخمسة آلاف سنة وقد وصلوا الى هذا التمدن من تلقاء أنفسهم لا بالاخذ عن غيرهم وكانوا شديدى التمسك بالديانة ويعتقدون بوحدانية الاله غير أنهم لقبوا الاله فى العبادة بألقاب مختلفة كآمون وبتاح وأوزوريس وميزوا كل اسم بعلامات خصوصية وجعلوا له معابد خاصة فتجزأت الالوهية تجزأ كبيرا وزال الاعتقاد بالوحدانية من عند الامة ولم يبق الا عند القسس وقد شبهوا الآلهة فى مبدأ الامر بالكواكب ثم لم يفرقوا بينهم فمثلا الاله (رع) كان رمزا للشمس والالهة (ايزيس) كانت رمزا للقمر ثم جعلوا الشمس الاله الاعظم وضموا لفظ (رع) الى لفظ (آمون) و(بتاح) و(أوزوريس) وقد اعتقد المصريون بتجسد الآلهة على الارض فعبد كل قسم من أقسام مصر الحيوان الذى يقولون ان الاله انتخبه لظهوره به مدة اقامته على الارض فعبدوا حينئذ التمساح والكلب والباشق (الباز) وأبا قردان والتيس والقط والنمس وخصوصا العجل المسمى أبيس واتخذوا لها معابد

وكان المصريون يعتقدون أن الموت ليس الا تغيرا فى الحياة فيقولون ان للجسم صورة أى طيفا يعيش بعده بعد أن يصير عديم الحركة مادام محفوظا ولذا كانوا يصبرون الاموات ويضعونهم فى مقابر مشيدة لاجل حفظها من حوادث الزمان ومن كل رجس وتدنيس ثم انهم كانوا يعتقدون أيضا بوجود الروح وأنها تحاسب بعد الموت أمام اوزوريس وقضاة النار الاثنين وأربعين فاذا كانت غير محسنة فهى فى العذاب الاليم حتى تنعدم بعد موت ثان وأما اذا كانت محسنة فتلحق بالجسم والطيف بعد امتحانات عديدة وتبقى معهما حتى تبعث

أما الصناعة فقد تقدمت كثيرا عند المصريين فقد كانوا ينسجون أقمشة الكتان والصوف ويستعملون فى صباغتها ألوانا لا تتغير قط بتداول الايام والسنين وكانوا يحسنون سبك المعادن من ذهب وفضه وبرونز وكانوا يعرفون القيشانى والزجاج والمينا أما آثاراتهم فشهورة بعظم حجمها وأهمها آثارات لقصر ومدينة آبو والفيوم واهرام الجيزه وقد اشتغل المصريون أيضا بالعلوم خصوصا علم الهندسة والفلك والطب والجغرافيه وقصارى الامر أن مصر كانت منبع العلوم والمعارف وفيها نبغ أعظم واضعى القوانين من اليونان ليكورغه وصولون وأعظم فلاسفتهم فيثاغورث وأفلاطون وغيرهم من مشاهير الرجال الذين اشتهروا بالعلوم والمعارف

الباب الاول

(فى زمن الملوكيه المصريه وفيه ثلاثة فصول)

ان الاحدى وثلاثين عائلة المتقدم ذكرها التى حكمت مصر من ابتداء الملك منا تنقسم الى ثلاث طبقات تعرف بالدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة وكانت كل عائلة تسمى باسم المدينة التى اتخذتها تختا لملكها فيقال عائلة طينية أى تخت ملكها بمدينة طينة وعائلة منفيه أى تخت ملكها بمدينة منف وعائلة طيبيه أى تخت ملكها بمدينة طيبة وعائلة صاويه أى تخت ملكها بمدينة صا الحجر وهكذا أما اذا كانت العائلة أجنبية فتسمى باسم أمتها ولذا يقال العائلة الاتيوبية والعائلة الفارسية والعائلة المقدونية وهكذا

الفصل الاول

(فى الطبقة الاولى وهى الدولة القديمة وفيه ثلاثة مطالب)

حكمت هذه الدوله ١٩٤٠ سنه (٥٦٢٦-٣٦٨٦ ق ه) وتشتمل على عشر عائلات من العائلة الاولى الى العائلة العاشرة

(المطلب الاول)

(فى الملك منا ومبدا الدولة القديمة)

لما ظهر الملك منا من مدينة طينه التى هى بلده كانت بالقرب من العرابة المدفونة بجوار جرجا وتغلب على الكهنة ونزع الحكم من أيديهم تولى هو ملك مصر ولما رأى ميل أهالى طينه الى القسس تركها وأسس مدينة منف المعروفة الآن بالبدرشين وميت رهينه وجعلها تخت ملكه وحول اليها مجرى النيل فجعله يجرى بقربها من الجهة الشرقية فى وسط وادى النيل بعد أن أبطل مجراه الاصلى الذى كان بقرب سلسلة

جبال ليبيا والجسر الذى أعده لهذا الغرض موجود للآن ويعرف بجسر قشيشه فاصلح بذلك الاراضى التى فى شرقها وجعلها تصلح للزراعة وشيد فيها هيكلا لمعبودها بتاح ثم سن القوانين ونظم السياسة ورتب الديانة وغزا سكان ليبيا الذين شنوا غارة الحرب عليه فقهرهم وأدخلهم تحت طاعته ثم مات بعد أن حكم اثنتين وستين سنة

ومن بعده تلاقب ملوك مصر بملوك الوجه القبلى والبحرى غير أن مصر بقيت على التجزئة التى كانت عليها قبل ظهوره مدة الثلاث عائلات الاول التى لم يعلم من تاريخها شئ تقريبا حتى ظهرت العائلة الرابعة فانضمت الى بعضها وصارت مملكة واحدة

(المطلب الثانى)

(فى زمن تشييد اهرام الجيزه وهو العصر الاول من أعصار الفنون المصرية)

قد كانت العائلة الرابعة أشهر عائلات الدولة القديمة فان فى عهدها كان تشييد اهرام الجيزة أكبر الاهرام الموجودة بمصر وفى أيامها بلغت مصر درجة عظمى فى التمدن ونمت فيها الفنون والعلوم والثروة الاهلية بطريقة عجيبة ومن عهدها صار يستدل من الآثار التى بالمقابر على تتابع الملوك والحوادث التاريخية بل وعلى كيفية معيشة قدماء المصريين وكان أشهر ملوكها الملك خوفو فقد كان رجلا مقاتلا ومحبا للتشييد العمارات فهو الذى شيد الهرم الاكبر من اهرام الجيزه واستعمل فى بنائه مع المناوبة فى كل ثلاثة أشهر مائة ألف عامل فاستمرت عمارته ثلاثين سنة منها عشرة فى توطيد أرضيته وبناء حجراته السفلى وبناء الجسر الموصل اليه من شاطئ النيل بالحجارة وكان معدا لنقل الاحجار التى بنى بها هذا الهرم ومنها عشرون سنة فى تشييد نفس الهرم ويبلغ ارتفاعه الآن ١٣٧ مترا ويتركب من ٢٠٠ طبقة من الاحجار الجسيمة وقد كان مغطى بطبقة من الاحجار المنحوته أزيلت عنه من منذ قرون ولو كان بقى على حالته الاولى لكان يبلغ ارتفاعه ١٥٠ مترا وأما ضلع قاعدته فيبلغ ٢٣٥ مترا والاحجار التى استعملت فى بنائه يبلغ حجمها ٢٥٠٠٠٠٠ مترا مكعبا وهو يشتمل على ثلاث حجرات

وجملة طرقات موصلة اليها ثم على بئر عميقة . وأعجب مايستغرب منه فى تشييد هذا الهرم المهارة التى توصل بها المصريون الى بناء مابداخله من الحجرات والطرقات التى مع توالى تلك السنين عليها لم يحصل لها أدنى خلل مع عظم الثقل الجسيم الذى فوقها

أما الهرم الثانى الذى شيده الملك خفرع فيبلغ ارتفاعه ١٣٥ مترا والهرم الثالث الذى شيده الملك منكورع وأتمته الملكة نيتوقريس من العائلة السادسة لايزيد ارتفاعه عن ٦٦ مترا

(المطلب الثالث)

(فى انتهاء الدولة القديمة)

ثم حافظت مصر على رونقها مدة العائلة الخامسة والعائلة السادسة التى كانت من أشهر عائلات الدوله القديمة أمازمن الاربع عائلات الاخيرة من هذه الدوله التى لم يعلم حقيقة ماحصل بمصر فى عهدها فكان زمن اضطراب وهيجان وحروب داخلية أوقفت مصر عن التقدم وفقدت منف فى أثنائها الرئاسة التى كانت لها على البلاد من عهد الملك منا وتجزأت المملكة فلما كانت أواخر أيام العائلة العاشرة انتصر أمراء طيبه على ملوك هذه العائلة فاسسوا بطيبة العائلة الحادية عشرة التى هى مبدأ الطبقة الثانية

الفصل الثانى

(فى الطبقة الثانية وهى الدولة الوسطى وفيه مطلبان)

مكثت هذه الدولة ١٣٦١ سنة (٣٦٨٦-٢٣٢٥ ق م) وتشتمل على ست عائلات من العائلة الحادية عشرة الى العائلة السابعة عشرة وفيها حصلت اغارة الملوك الرعاه

(المطلب الاول)

(فى العصر الثانى من أعصار الفنون المصريه)

قد تجددت بظهور العائلة الحادية عشرة التى هى مبدأ هذه الدولة ثروة مصر وبهجتها وتجدد تاريخها مع التغيير الكلى فى حالة البلاد السياسة والدينية فقد تغيرت أسماء الاعلام المستعملة فى العائلات وأسماء الوظائف وتغيرت الكتابة والديانة أيضا

فان المرتبة الاولى صارت لمعبودات طيبه بعد أن كانت لمعبودات منف وانتقل كرسى المملكة من منف الى طيبه ولكن العائلة الثانية عشرة هى التى يكون زمنها العصر الثانى من أعصار الفنون المصرية فانها كانت أشهر عائلات هذه الدوله ومن أعظم عائلات مصر بهجة ورونقا وأوضحها تاريخا وفى عهدها كانت مصر باجمعها من شلال اصوان الى البحر الابيض المتوسط مملكة واحدة خاضعة لملك واحد كما كانت فى زمن العائلة الرابعة وقد مدت حدودها شمالا لغاية صحراء بلاد الشام وجنوبا الى الشلال الرابع وشيدت بتلك الجهات حصونا وقلاعا لمنع أهل آسيا والنوبة عن التعدى على حدودها وكان أشهر ملوك هذه العائلة الملك امنمحعت الثالث فانه نظم فيضان النيل الذى هو روح مصر وذلك أنه لما وجد فيضان النيل غير منتظم فتارة يزيد زيادة عظيمة بحيث يقطع الجسور ويغرق البلدان وطورا تكون زيادته طفيفة بحيث لا تكفى لرى جميع الاراضى الزراعية أراد أن يتدارك هذه المضار فامر بحفر البركة الموجودة الآن بوادى الفيوم المسماة بحيرة موريس وكان بجانبها بركة طبيعية تعرف ببركة قارون فكان يصرف اليهما القدر الزائد من مياه النيل عن المنافع الضرورية اذا كان الفيضان كثيرا وتروى بمياههما جميع أراضى الجانب الايسر من النيل الى البحر الابيض المتوسط اذا كانت زيادة النيل ضعيفة وكان فى وسط بركة موريس هرمان فى كل منهما تمثال جالس فالهرم الاول كان فيه تمثال الملك امنمحعت يشاهد بركته التى حفرها والثانى كان فيه تمثال زوجته وشيد فى الجهة الشرقية من هذه البحيرة على ربوة عالية متسعة طولها مائتا متر وعرضها مائة وستون مترا سراية شهيرة تسمى سراية لابيرانته يوجد بداخلها اثنتا عشرة رحبة متقابلة الابواب ستة على اليمين وستة على الشمال وهذه السراى محاطة من الخارج بسور كبير وفيها ثلاثة آلاف غرفة منها ألف وخمسمائة فى الدور الاول وألف وخمسمائة فى الدور الثانى وجميعها مسقوفة بالحجارة ومقامة على أعمدة من الحجر الابيض منتظمة الصفوف وفى آخر هذه السراى هرم مزين بالرسوم يتوصل اليه من سرداب تحت الارض دفن فيه الملك امنمحعت الثالث

(المطلب الثانى)
(فى الملوك الرعاة)

و بعد العائلة الثانية عشرة أخذ تاريخ مصر فى الانحطاط فانه لا يعلم من تاريخ العائلة الثالثة عشرة والعائلة الرابعة عشرة الاشئ قليل أما فى عهد الثلاث عائلات الاخيرة من هذه الدولة الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة فقد كانت مصر محكومة بقوم يقال لهم الملوك الرعاة أو الهيكسوس وهم أقوام من آسيا رحل أغاروا على مصر من جهة برزخ السويس فتملكوا على الوجه البحرى بدون كبير معارضه وأخذوا يحرقون المدن والمعابد وينهبون مافيها ويقتلون الاهالى ثم صعدوا النيل الى مدينة طيبه غير أنهم لم يمكنهم أن يستوطنوها بل تركوا الحكم فيها لامراء المصريين بشرط أن يدفعوا لهم الجزية وقد أسسوا لهم حكومة منتظمة ورتبوا خفراء لملاحظة الوجه القبلى ثم غلب عليهم التمدن المصرى بعد أن أقاموا فى مصر مدة فتعلموا لغة المصريين واعتادوا بعوائدهم ثم تعودوا على الترف والخمول أيضا لوجود الراحة وكثرة الثروة حتى تقوى عليهم أمراء طيبة وطردوهم من أرض مصر بعد أن أقاموا بها أكثر من خمسمائة سنة فى عهد الملك احمس أحد هؤلاء الامراء الذى أسس بعد طردهم العائلة الثامنة عشرة مبدأ الدولة الحديثة

وقد كان بيع يوسف الصديق عليه السلام فى مصر وحضور بنى يعقوب اليها وتوطنهم فيها فى عهد هؤلاء الملوك فى أيام العائلة السادسة عشرة

الفصل الثالث

(فى الطبقة الثالثة وهى الدولة الحديثة وفيه أربع مطالب)

أقامت هذه الدولة ١٣٧١ سنة (٢٣٢٥ – ٩٥٤ ق م) وتشتمل على أربع عشرة عائلة من العائلة الثامنة عشرة الى العائلة الحادية والثلاثين وفيها حصلت اغارات الاتيوبيين والاشوريين والعجم

(المطلب الاول)

(فى عصر الفتوحات وهو العصر الثالث من أعصار التمدن المصرى)

ان عصر العائلات الثلاث الاولى من هذه الدولة كان فى الرونق والبهاء كعصر العائلة الرابعة من الدولة القديمة وكعصر العائلة الثانية عشرة من الدولة الوسطى أى انه يكون المدة الثالثة من عصر التمدن المصرى وتسمى هذه العائلات الثلاث أى الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرون بالعائلات الحربيه فان فى عهدها كثرت فتوحات مصر واتسعت حدودها فامتد حكمها شمالا الى غاية شواطئ الدجلة والفرات وجنوبا الغاية اقليم النيل الازرق وشرقا الى الشاطئ الغربى من بلاد العرب ودخل فى حوزتها أيضا كثير من جزائر البحر الابيض المتوسط وكانت مكللة بالنصر فى جميع فتوحاتها سواء كانت برا أو بحرا

فاما العائلة الثامنة عشرة فكان أشهر ملوكها الملك امنحتب الاول الذى فتح بلاد الاتيوبية لغاية البحر الازرق وأسس فيها مستعمرة مصرية يبلغ اتساعها قدر اتساع مصر والملك تحتمس الاول أول من دخل بلاد آسيا من ملوك مصر وأخضع بلاد الشام لغاية نهر الفرات ثم الملك تحتمس الثالث أعظم الذين اشتهروا بالفتوحات من ملوك مصر فقد أوغل بجيوشه فى مبدأ الامر فى آسيا لغاية نهر الدجله وأدخل تحت طاعته الامم الذين كان أخضعهم أبوه تحتمس الاول وأقاموا عليه راية العصيان ثم استولى أيضا على أغلب جزائر البحر الابيض المتوسط بمساعدة مراكب فينيقيه فتملك أولا على جزيرتى قبرص وكريد ثم على جزائر بحر الارخبيل وجزء عظيم من شواطئ بلاد اليونان وآسيا الصغرى ووطد سلطته أيضا على ساحل بلاد ليبيا وقد حكم أربعة وخمسين سنة

أما أشهر ملوك العائلة التاسعة عشرة فهو رمسيس الثانى الملقب سيزوستريس ابن الملك سيتى ثانى ملوك هذه العائلة ويقال له أيضا رمسيس الاكبر لانه كان أعظم ملوك مصر قوة وشوكة وطالت مدة حكمه وكثرت فيها الآثار المصرية والعمائر الجسيمة حتى

لايكاد يوجد بوادى النيل أثر من الآثار القديمة والعمائر العظيمة الا وعليه اسمه ورسمه وقد لقب هذا الملك فى أيام والده بولى العهد وكان مشتغلا بالحروب والغزوات فان والده أشركه معه فى الحكم وهو صغير وصار يعلمه اقتحام الاهوال ويعوّده على مقاساة الاخطار فأرسله لغزو بلاد الشام وكان عمره عشر سنين فغزاهم بجنود والده وأدخلهم تحت الطاعة ثم حارب أيضا بلاد الاتيوبيه فتعود على الشجاعة والرئاسة وكان يتولى الحكم فى حياة أبيه لكبر سنه حتى مات والده واشتغل بالملك فقام باعبائه واستتبت الراحة واستمر الهدوّ فى بلاده الى آخر السنة الرابعة من حكمه وبعد ذلك قامت عليه جميع سكان آسيا الغربية وكانوا أقواما ذوى قوة وشجاعة فخرج لملاقاتهم فى السنة الخامسة من حكمه بجيش مؤلف من ١٥٠ ألف مقاتل وسار الى أن عبر أرض كنعان ووصل الى وادى الأورنط بقرب مدينة كدش فقابله اثنان من الاعداء وقالا له ان الاعداء تقهقروا الى حلب فاغتر بكلامهما وزحف على الاعداء بحرسه الملوكى فقط وكان باقى جيشه بعيدا عنه فلما تقدم نحو مدينة كدش فاجأه الاعداء بجيش مؤلف من ٨٠ ألف مقاتل وهجموا عليه فانهزم من معه وولوا الادبار وبقى هو بين أعدائه وحيدا فتأهب للقتال بنفسه وحمل على الاعداء بشجاعته ولم يزل يقاتلهم حتى أدركته رجاله وفرسانه وحملوا معه فانكسر الاعداء وطلبوا الصلح فصالحهم ثم عادوا الى الحرب ثانيا واستمرت الوقائع بينهم مدة خمس عشرة سنة حتى كاد يفنى غالب رجال الفريقين فانعقد الصلح بين الطرفين فى سنة ٢١ من حكم رمسيس ثم تمم الملك رمسيس مدة السبعة وستين سنة التى أقامها على كرسى الملك فى تشييد العمارات الجسيمة والمبانى الفاخرة وقبل موته أشرك معه فى الحكم ابنه الثالث عشر المسمى منفتاح فخلفه بعد أن مات وهو الذى فى أيامه كان خروج بنى اسرائيل من مصر تحت رئاسة موسى عليه السلام

وأما العائلة العشرون فكان أشهر ملوكها الملك رمسيس الثالث ثانى ملوكها الذى فتح بلاد البونت أى بلاد اليمن وكانت مصر فى عهده فى الشوكة التى كانت عليها أيام

تحتمس الثالث ورمسيس الثانى غير أن هذه الحروب التى وقعت فى عهد الثلاث عائلات المذكورة ومكثت نحو الثلاثة قرون قد أضعفت مصر فأخذت قوتها فى الانحطاط من وقتئذ ثم ضعفت السلطة الملوكية بها أيضا فابتدأ الاختلال فى الحكومة فاستولى على التدريج كهنة آمون بطيبه على وظائف الحكومة المهمة ولم تزل تزداد سلطتهم حتى ان رئيسهم المدعو حرحور اغتصب السلطة الملوكية فى أواخر أيام هذه العائلة

(المطلب الثانى)

(فى تجزئ مصر واغارة الايتيوبيين والاشوريين عليها)

وبعد حرحور أراد ورثاؤه أن يوطدوا سلطتهم على جميع انحاء المملكة فعارضهم فى ذلك أمراء الوجه البحرى وأسسوا بمدينة تنيس العائلة الحادية والعشرين واستقل القسس وهم كهنة آمون بالوجه القبلى بمدينة طيبه فانقسمت مصر حينئذ الى حكومتين ووقعت فيها الحروب الداخلية فسقطت شوكتها الخارجية وامتنع أمراء الشام من دفع الجزية حيث كان أغلبهم انضم الى مملكة بنى اسرائيل التى كانت قد بلغت غاية عظمها اذ ذاك فى عهد داود وسليمان عليهما السلام ثم قام رجل من رؤساء الجيوش بالوجه البحرى شامى الاصل يدعى شنشق فتغلب على السلطة الملوكية وأسس العائلة الثانية والعشرين ثم وطد سلطته على جميع بلاد مصر وطرد القسس من طيبة وألجأهم الى بلاد الايتيوبية الممتدة فى جنوب مصر فأسسوا فيها مملكة مستقلة تخت ملكها مدينة نباته على بعد ٩٠٠ كيلومترا من الشلال الاول غير أنه بعد شنشق ابتدأ انحطاط مصر ثانيا فى عهد خلفائه فاخذت فى التجزئة ثانيا وتلقب بالالقاب الفرعونية عشرون أميرا من أمرائها منهم اثناعشر بالوجه البحرى وكونوا العائلة الثالثة والعشرين الا أن أحدهم المدعو تفنخت أمير صا الحجر بالوجه البحرى شرع فى التغلب عليهم وتأسيس العائلة الرابعة والعشرين فقاوموه واستعانوا عليه

بملك الايتيوبية بعنخى الذى من ذرية حرحور فحضر بعنخى الى مصر واستولى عليها ولكن بعد موته ولى المصريون بوكنرو أو بوكوريس بن تفنخت ملكا عليهم ولكنه بعد أن حكم سبعة سنوات أغار عليه ملك الايتيوبية شاباك أو سباكون حفيد بعنخى وتملك على مصر وأسس فيها العائلة الخامسة والعشرين غير أنه فى ذلك الوقت كان قد قام بوادى الدجلة والفرات مملكة أشور التى تخت ملكها بمدينة نينوى على شاطئ الدجلة وكانت هذه الدولة قد بلغت غاية عظمها ووصلت الى أعلى شوكتها حتى صارت هى الدولة المتسلطنة فى الشرق فامتدت سلطتها على جميع البلاد الممتدة بآسيا من بحر الخزر الى خليج العجم ومن نهر الدجلة الى البحر الابيض المتوسط حتى صارت مجاورة تقريبا لمصر فاراد سباكون أن يتداخل فى أمور الشام ضد ملكها سرجون فانهزم وهرب الى بلاد الايتيوبية ولما تملك على مصر طهراقه الايتيوبى بعده وأراد أن يدخل بلاد الشام أيضا هزمه اشوراخى الدين ملك أشور وأخذ منه مصر التى تملك عليها من بعده ابنه أشوربانبال

(المطلب الثالث)

(فى تجدد مجد مصر ورونقها القديم)

وبعد أن تخلصت مصر من الايتيوبيين والاشوريين بقيت فى أيدى أمرائها العشرين الذين منهم اثنا عشر مكونون بالوجه البحرى لحكومة تعاهديه تسمى بالقاسمة الاثنى عشريه وكان من هؤلاء الامراء ملك صا الحجر الذى من ذرية تفنخت المدعو بسامتيك الاول فتغلب عليهم وأسس العائلة السادسة والعشرين التى كانت من أشهر عائلات مصر فان أيامها كانت كثيرة الخيرات والعمران وفى عهدها كانت مصر زاهية زاهرة قد قامت من دمارها وأصلحت فيها الطرق والترع والآثار وعادت الى الفتوحات وفتحت أبوابها للتجار الاجانب وخصوصا اليونانيين وردت الى الصناعة حركتها الاولى ورجع للفنون رونقها القديم بل وامتازت تماثيل ذلك الوقت بدقة صنعتها وحسن

بهجتها وظهر بمصر فى ذلك الحين كتابة أوجز وأبسط من الكتابة الهيروغليفيه وأسرع منها تعرف بالكتابة الديموطيقيه أى العاميه لانها كانت معروفة عند العامة فانتشرت المؤلفات الادبيه والعلميه بمساعدة هذه الكتابة وقد خلف بساميتيك الاول ابنه نخاو الثانى فشرع فى توصيل البحر الاحمر بالبحر الابيض المتوسط بواسطة أحد أفرع النيل فلم تتم العمليه وكلف جماعة من الفنيقيين الذين كانوا فى ذلك الوقت أشهر الامم فى الملاحة بالسياحة حول أفريقا فداروا حولها فى مدة ثلاث سنوات مبتدئين من البحر الاحمر راجعين من بغاز جبل طارق ثم عزم هذا الملك على الدخول فى بلاد الشام والتملك عليها غير أنه فى ذلك الوقت كانت مملكة بابل التى قامت بشواطئ الفرات وخلفت مملكة اشور فى حكم آسيا قد وصلت الى غاية شوكتها ونهاية رفعتها وامتدت أيضا من جنوب وادى الدجلة والفرات الى البحر الابيض المتوسط فهزم ملكها بختنصر نخاو الثانى فالتزم نخاو بعقد الصلح معه ثم خلف نخاو ابنه بساميتيك الثانى ثم وح أبرع أوابرياس ابن بساميتيك فارسل جيوشه لفتح برقه بجهة تونس فانهزمت عساكره وأقاموا راية العصيان وولوا أحد رؤساء الجيوش المدعو احمس أوأماسيس ملكا عليهم فلما رجع تحارب مع الملك وهزمه وتولى هو ملك مصر فحافظت مصر فى عهده على رونقها وبهجتها غير أنه فى ذلك الوقت كان قد قام بآسيا مملكة العجم وكانت هذه الدولة قد أدخلت فى حوزتها جميع الممالك الواقعة فى غرب نهر السند كمملكتى ماذى وبابل اللتين قامتا على اثر مملكة أشور ومملكة ليديه القائمة بآسيا الصغرى وغيرها حتى صارت هى الدولة المتسلطنة بآسيا الغربية جميعها وقد امتدت من نهر السند الى بحر الارخبيل والبحر الابيض المتوسط حتى صارت مجاورة تقريبا لمصر فعزم أحد ملوكها المدعو كمبيز بن كيروش على فتوح هذه المملكة أيضا فحضر اليها وقت موت احمس واقامة ابنه بساميتيك الثالث ملكا عليها فحاربه وأخذها منه وأسس فيها العائلة السابعة والعشرين وهى مبدأ الدولة الفارسية بمصر

(المطلب الرابع)

(فى الدولة الفارسية بمصر)

قد امتد حكم هذه الدولة على مصر نحو القرنين تقريبا (١١٤٧-٩٥٤ ق م) وكان أول ملوكها بها الملك كبيز الذى أغار عليها فى عهد بساميتيك الثالث فلما شرع هذا الملك فى الاغارة عليها عقد معاهدة مع مشايخ قبائل العرب الذين لهم اليد على الطريق الموصلة الى وادى النيل من صحراء برزخ السويس ليرخصوا له بالمرور منها ويأتوا بالماء لجيشه فسارت جيوشه فى تلك الصحراء حتى حلت أمام مدينة الطينه أو الفرما فانتشبت الحرب بينهم وبين جيوش بساميتيك هناك وقاوم اليونانيون المستأجرون فى الجيشين مقاومة عظيمة ثم انهزمت جيوش المصريين الى مدينة منف لكثرة جيوش العجم فأرسل اليهم ملك العجم رسلا ليسلموا المدينة ويذعنوا له بالطاعة فلم يقبلوا منه وقتلوا الرسل فغضب ملك العجم وحضر بجيوشه الى هذه المدينة وأحاط بقلعتها وأقام محاصرا لها حتى استولى عليها عنوة ووقع بسامتيك وجميع أمراء المملكة أسراء فى قبضته فقتلهم أمام بسامتيك ثم أراد أن يقيمه ملكا على مصر بالتبعية له لولا أن بلغه أنه غصب عليه عصبة فقتله أيضا وسلم حكومة مصر الى ارياندس الفارسى فلما تم له فتوح مصر أظهر فى أول الامر علو الهمة والرأفة بالرعية والشفقة عليها وسلك مسلك الامن والراحة فلم يخل براحة البلاد وأمنيتها بل أبقاها على عبادتها وميز من بقى من المصريين بعلامات الامتياز وقرب منه أمناء الديانة المصرية ليتعلم ما اشتهروا به من العلوم والحكمة ثم أراد أن يجعل مصر أساسا وطيدا لمشروعه وهو أن يفتتح جميع بلاد أفريقية فارسل لغزو جمهورية قرطاجنه سفنا أعدها بحرية من الفنيقيين وكان هؤلاء الفنيقيون هم الذين عمرت قبائلهم مدينة قرطاجنه فامتنعوا عن محاربة القرطاجيين بسبب القرابة التى بينهم ووجه فرقة من جيشه تبلغ ٥٠ ألف مقاتل لمحاربة واحة سيوه فضلوا عن الطريق وتاهوا فى الصحراء فهبت عليهم ريح السموم فاهلكتهم عن آخرهم ولم ينج منهم أحد وسار بنفسه لمحاربة بلاد الايتيوبية واتخذ

طريقه من الصحراء لكونها أقرب طريق فانحرف عن شواطئ النيل وأوغل بعساكره فى الصحراء فنفد زاده ولحق جيشه القحط والجوع حتى أكل بعضهم بعضا بالاقتراع من كل عشرة أنفار واحد ممن تقع عليه القرعة فخسر خسائر عظيمة وخاف على نفسه الهلاك فالتزم بالعودة الى مصر بباقى جيوشه بعد أن فقد منهم كثير فلما رجع الى مصر استعمل مع أهلها القسوة بدل الرأفة وصارت أفعاله من يومئذ كلها اختلالات ومفاسد فانه لما وصل الى مدينة طيبة أراد تعويض تلك الخسائر الجسيمة فسلب أمتعة الهياكل وزينتها وذخائرها ولما وصل الى منف صادف دخوله فيها يوم الاحتفال بموسم اقامة العجل المسمى أبيس على التخت المعدّ لاقامته فظن أنهم فرحون مستبشرون بهزيمته فقتل الكهان وأمراء الاديان وأرباب الحل والعقد دون أن يسألهم عن الاسباب وطعن أيضا العجل معبودهم بخنجر فادماه ثم دخل معبد منف وسخر بتماثيل تلك العجول ونهب جميع ما كان فى المقابر القديمة فنبش القبور طمعا فيما يوجد بها من النفائس القديمة ولم يسلم من أعماله الذميمة قومه ولا أهله فقد قتل كثيرا من أمراء العجم ودفن البعض حيا وقتل أخاه وأخته التى تزوج بها على خلاف عادتهم وقتل ابن أحد وزرائه ليبرهن لابيه على صحوه مهما تعاطى من الشراب وغير ذلك ثم خرج من مصر يريد الرجوع الى بلاده فمات ببلاد الشام قبل الوصول اليها بعد أن حكم سبع سنوات وخمسة أشهر

ثم اجتهد المصريون مرارا من بعده فى الخروج عن طاعة العجم والاستقلال بانفسهم حتى تمكنوا من ذلك سنة ١٠٢٨ ق ه لاختلال مملكة فارس فى ذلك الحين فاستقلوا بحكم أنفسهم نحو الستين سنة (١٠٢٨ - ٩٦٢ ق ه) فقام بمصر فى تلك المدة ثلاث عائلات مصرية وهى الثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون والثلاثون واجتهد المصريون فى تحصين حدودهم تحصينا عظيما خوفا من العجم غير أن ذلك لم يجد نفعا حيث لم يمكنهم مقاومة العجم عندما أغاروا عليها فى المرة الثانية بل ان آخر ملوكهم المدعو نقطنبو الثانى بعد أن قاوم العجم مقاومة شديدة جمع أمواله وهرب الى

بلاد النوبه فدخلت مصر حينئذ تحت حكم العجم ثانيا فاسسوا فيها العائلة الحادية والثلاثين ومنهم انتقلت الى اليونانيين بظهور الاسكندر الاكبر حيث أغار عليها سنة ٩٥٤ ق ه وأخذها من يد دارا الثالث آخر ملوك العجم

الباب الثانى

(فى ذكر مصر تحت حكم اليونان وفيه فصلان)

لما أفرغت دولة العجم فى دولة الاسكندر الاكبر باغارته عليها صارت مصر كباقى دول الشرق القديمة التى كانت تحت حكم العجم جزأ من دولته ثم مكثت تحت حكم اليونانيين مدة ٣٠٢ سنة (٩٥٤-٦٥٢ ق ه) فأسسوا فيها عائلتين الثانية والثلاثين وهى الدولة المقدونية أى مدة تبعيتها الدولة الاسكندر الاكبر والثالثة والثلاثين وهى الدولة البطليموسية أى مدة استقلالها تحت حكم عائلة بطليموس أحد قواده

الفصل الاول

(فى الاسكندر الاكبر وفتوح اليونانيين لمصر)

قد كان الاسكندر الاكبر ملك مقدونية احدى أقسام بلاد اليونان الشمالية رجلا عالى الهمة شديد الذكاء جيد الخصال جميل الصورة وقد اكفل أبوه بتربيته الفيلسوف الشهير ارسطاطاليس فأحسن تربيته واستخلفه على الملك وعمره سبعة عشر سنة مدة تغيبه فى حرب طراسة فقام باعباء الملك وكانت تلوح عليه من صغره سمة الفطنة والشجاعة فلما مات والده فيلبش ملك مقدونية استولى على المملكة وعمره عشرون سنة فلم يلبث أن خرج عليه بعض الامم التى أخضعها أبوه ببلاد اليونان وشواطئ الدانوب أى الطونة فأرجعهم الى الطاعة بعد أن هزمهم شر هزيمة

حتى ارتجفت منه بقية المدن اليونانية وأذعنت له بالطاعة بكل خضوع ثم عزم على محاربة العجم فعبر بغاز الدردانيل المسمى قديما هلسبونت بجيش مؤلف من ٣٥٠٠٠ مقاتل وتلاقى بجيوش العجم عند نهر جرانيقه فهزمها واستولى على جميع اسيا الصغرى بدون أدنى مقاومة أما ملك العجم دارا الثالث فجهز جيشا مؤلفا من ٥٠٠,٠٠٠ مقاتل وحضر للاقاته فقابله عند مدينة اسوس وحصلت بينهما واقعة عظيمة انهزم فيها دارا وهرب فى داخل بلاده وترك أمه وأخته وامرأته وأولاده فى المعركه فوقعن أسرى فى يد الاسكندر فعاملهن أحسن المعاملة ثم اتجه الى بلاد الشام كى يتملك على جميع الشواطئ البحرية ودخل بلاد فنيقيه ففتحت له جميع مدنها أبوابها الامدينة تير وهى صور فانه لم يتمكن من فتحها الا بعد حصارها سبعة أشهر ثم تملك على غزة أيضا ودخل مصر من طريق بيلوز وهى الفرما فخضعت له بكل سهولة لبغضها لحكم العجم ولما وصل الى مدينة منف أخذ يتفرج فى داخل البلاد وعامل أهلها بالحلم والعدل ورتب ادارتها ونظم سياستها ولم يغير شيأ من عوائد أهلها القديمة ثم نزل النيل حتى وصل الى قرية راقوده الواقعة بالبرزخ المحصور بين بحيرة مريوط والبحر الابيض المتوسط فاستحسن جدا موقع هذا البرزخ واختاره موضعا لمدينة الاسكندرية فخطط بنفسه أساساتها سنة ٣٣١ ق م وأناط المعمار المسمى دينوقراطس باجراء العمل ودخلت راقوده فى سورها وبقى اسم راقوده لخطة بالاسكندرية بنيت على آثارها ثم توجه الاسكندر من هنالك الى معبد آمون فى واحة سيوه واستجوب الكهانه ولم يظهر نفسه فعرفه الكهان وأعلنوا بانهم يعهدون انه ابن المشترى وقد خضعت له مستعمرة كيرينه اليونانية أيضا وهى طرابلس الغرب الآن حينما توجه الى واحة سيوه وأما دارا فقد جمع بوادى الدجله والفرات جيشا ضعف جيشه الاول الذى انهزم فى واقعة اسوس فخرج الاسكندر من مصر ورجع على عقبه الى بلاد الشام ثم عبر نهرى الفرات والدجلة وتلاقى معه فى سهل اربل فهزمه أيضا وهرب دارا الى مدينة اكبتان وهى همذان فلم يقتف الاسكندر أثره بل اتجه

جنوبا وتملك على بابل وسوس وبرسيبوليس وپاسارجاد من عواصم مملكة العجم ثم اتجه شمالا حينئذ ليقتفى أثره فوصل الى مدينة اكبتان غيرأن دارا كان قد خرج منها والتجأ الى ولاية بكتريان من ولايات مملكته وهى قسم بخاره الآن فقتله واليها بسوس فلم يلبث الاسكندر أن حضر الى مدينة بكتر وهى بلخ تخت هذه الولاية وقبض على بسوس بعد أن اقتفى أثره خلف نهر اكسوس وهو نهر جيحون وسلمه الى أخى دارا فأماته فى العذاب الاليم ثم قصد الاسكندر نهر السند فعبر هذا النهر وأراد أن يتوغل فى بلاد الهند فلم تطاوعه عساكره فنزل فيه الى مصبه ورجع الى مدينة بابل من طريق صحراء جدروزيه وهى بلوجستان فأراد أن يجعلها عاصمة دولته وينظم أمور المملكة فأدركته فيها الوفاة سنة ٩٤٥ ق ه وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة فمات أثناء فتوحاته قبل أن يتم جميع مشروعاته العظيمة التى لم تخطر على قلب بشر وترك له من الصيت والشهرة ماملأ أقطار العالم وكانت دولته اذ ذاك ممتدة من البحر الادرياتيق والبحر الداخل أى البحر الابيض المتوسط غربا الى جبال ايجود أى جبال هماليا ونهر هيفاز ونهر السند غربا ومن نهر الدانوب وهو الطونة وبحر بونت اوكسن أى البحر الاسود وجبال القوقاز وبحر الخزر ونهر ياكسارت أى نهر سيحون شمالا الى بحر اريطزه أى بحر عمان وخليج العجم وصحراء بلاد العرب وشلال اصوان جنوبا فاقتسمها قواد جيوشه فكانت مصر من نصيب أحدهم المدعو بطليموس فأسس فيها عائلة ملوكية جديدة وهى دولة البطالسة

الفصل الثانى

(فى الدولة البطليموسية)

قد حكمت هذه الدولة على مصر نحو الثلاثة قرون (٩٤٥ - ٦٥٢ ق ه) وبلغت مصر فى عهدها فى الشوكة والمجد والثروة درجة عظمى لم ترها من مدة مديدة فقد صارت مدينة الإسكندرية عاصمة المملكة الجديدة منبعا للعلوم والمعارف وكان جميع ملوك

هذه العائلة يطلق عليهم اسم بطليموس مع أن كلا منهم كان له لقب خاص به وهم نحو الاربعة عشر استقلوا بحكم مصر واستعملوا مع المصريين اللين والرفق وأصلحوا البلاد واحترموا نظاماتها مع اجتهادهم فى ادخال التمدن اليونانى فيها وكان أشهرهم بطليموس الاول الملقب لاغوس أوسوطير أى المخلص وهو المؤسس لهذه الدولة فلما قبض على أزمة الحكومة فى مصر وجه مزيد همته الى استمالة قلوب الاهالى اليه فاستعمل الرأفة والحلم فى أحكامه وأحسن التدبير والسياسة وضم الى مصر كيرينه والشام وقبرص وفنيقية وشيد بمدينة الاسكندريه معابد كثيرة وبنى بها منارة فى جزيرة فاروس لتسهيل الملاحة بجوار ميناها ومن أشهر أعماله مدرسة الاسكندرية المسماة بالرواق التى جلب اليها العلماء من اليونان وغيرها من البلدان الرائجة فيها أسواق العلوم والمعارف وكان هذا الملك محبا لمجالسة العلماء ومحادثتهم وقد جمع لهم كتبخانة عظيمة فهرع الى مصر مشاهير الرجال من أهل الشرق والغرب حتى صارت مدينة الاسكندرية مركز العلوم والمعارف

وبطليموس الثانى الملقب فيلادلفوس أى محب أخيه وهو ابن بطليموس الاول قد تنازل له أبوه عن الملك فى حياته فلما خلف أباه على سرير الملك اجتهد مثله فى نشر العلوم والمعاوف وترجم الى اللغة اليونانية كتب اليهود المقدسة (المعروفة بالترجمة السبعينية) وزاد فى الكتبخانة التى أنشأها أبوه وأوسع على الفلك والملاحة وأمر باستكشاف بلاد النوبه والنيل الاعلى وكان من أعظم ملوك هذه العائلة وعصره من أعظم الاعصر فى تاريخ الفلسفة

ثم بطليموس الثالث الملقب ويرجيطه أى المحسن أو الرحوم وهو ابن بطليموس الثانى خلف أباه بعد موته على سرير الملك وكانت مدته من أعظم المدد وفعة لمصر حيث امتدت فتوحاته الى أواسط آسيا وبلاد النوبة فقد أغار على بلاد الشام وعبر نهر الفرات ووصل لغاية بكتريان ببلاد العجم فأرجع الى مصر تماثيل الآلهة المصرية التى كان سلبها كثير من مصر وضم الى مصر الجزء الشمالى من بلاد الايتيوبية لغاية مدينة ايريم

أما من بعده فقد ابتدأ انحطاط هذه الدولة فان الملوك الذين خلفوه كانوا قد تولوا جميعا في حداثة سنهم فتركوا أمور المملكة في يد أوصيائهم عليها يديرونها حسب أغراضهم ولم يلتفتوا الا الى اللذات والشهوات فابتدأ حينئذ اختلال المملكة وسقطت شوكتها الخارجية فطمع فيها جيرانها ووقعت الحروب بين ملوكها وملوك الشام على الدوام فالتزموا بأن يوسطوا دولة الرومانيين في الخلاف بينهم وبين هؤلاء الملوك حيث كانت هي الدولة ذات السطوة في ذلك الوقت التي لها الكلمة النافذة على جميع ممالك البحر الابيض المتوسط فابتدأ تداخل الرومانيين حينئذ في أمور المملكة ثم لما وقعت فيها الفتن والثورات لازدياد اختلالها وانهماك ملوكها على ملاذهم الشهوانية التزم هؤلاء الملوك بان يخضعوا للسلطة الرومانية ويحكمون برعاية مجلس رومة لهم لخوفهم من أهالي الاسكندرية فارتبطت أمور مصر حينئذ بالدولة الرومانية حتى آل الامر أخيرا الى أن تملكت عليها هذه الدولة بعد موت قليوبطره آخر ملوك هذه العائلة فصارت مصر ايالة رومانية تحكم بعمال من الرومانيين

الباب الثالث

(في ذكر مصر تحت حكم الرومان وفيه فصلان)

ان الدولة التي أفرغت فيها دولة الاسكندر تقريبا هي الدولة الرومانيـة فقد ورثت هذه الدولة ذلك الفاتح المقدوني في ممالكه الواقعة على البحر الابيض المتوسط وامتدت فتوحاتها على جميع البلاد الواقعة على هذا البحر واليها انتهى تمدن الامم القديمة وبها انتقل من المشرق الى المغرب وقد حكمت على مصر ٤١١ سنه (٦٥٢-٢٤١ ق هـ) وهذه المدة هي التي كانت فيها مصر تابعة لرومة أي لدولة الرومانيين قبل انقسامها فلما انقسمت هذه الدولة الى دولة رومانية شرقية والى دولة رومانية غربية صارت مصر أيضا تابعة للدولة الرومانية الشرقية نحو ٢٥٩ سنه (٢٤١ ق هـ-١٨ ب هـ) وهذه المدة تسمى عدة النصرانية لان المصريين كانوا فيها قد اعتنقوا الديانة المسيحية وأما في سائر المدد السابقة فكانت ديانة مصر الوثنية ولذا مجموعها يعبر عنه بعدة الوثنية

الفصل الاول

(فى فتوح الرومانيين لمصر وحكمهم بها)

لازال نفوذ الرومانيين يزداد بمصر ولازالت ملوك مصر تتقرب من هذه الامة لكثرة عصيان المصريين عليهم حتى كانت أيام بطليموس الحادى عشر الملقب أوليطيس أى الزامر فأوصى قبل موته بملك مصر لاكبر أولاده وكبرى بناته بشرط عقد الزواج بينهما وأن يكون الوصى عليهما الامة الرومانية فلما مات خلفته قليوبطره وحكمت بالاشتراك مع أخيها بطليموس الثانى عشر الملقب بطليموس دنيس أى الجار حسب وصية أبيهما وكانت اذذاك الدولة الرومانية بين يدى أميرين من أمرائها مشتركين فى حكومتها وهما يوليوس قيصر وبمبيوس وكانت قد ظهرت بينهما العداوة وحصل بينهما الفشل بعد موت شريكهما الثالث أقراسوس فوقعت بينهما الحروب وهرب بمبيوس من رومة الى بلاد اليونان فتبعه فيها يوليوس قيصر وهزمه فهرب بمبيوس الى مصر ملتجئا الى بطليموس دنيس ظنا منه أنه يجيره حيث كان هو الذى أجلسه على كرسى المملكة وكان بطليموس المذكور منفردا بملك مصر اذذاك فان أهالى الاسكندرية كانوا قد ثاروا على أخته قليوبطره فهربت منهم الى بلاد الشام فلما قدم بمبيوس مصر أرى لبطليموس وزراؤه أن لا يوقع نفسه فى ورطة الاشتراك معه فارسل له بطليموس جماعة لاستقباله وأمرهم بقتله فقتلوه عند حضوره الى شاطئ مصر ولما حضر يوليوس قيصر الى الاسكندرية مقتفيا أثر خصمه قدم له وزراء بطليموس رأس بمبيوس فغضب يوليوس من هذا الفعل الشنيع ولم يستحسنه فلما رأى منه ذلك وزراء بطليموس تجاسروا بمحاصرته فى السراى الملوكية بالاسكندرية لقلة عساكره فبقى محصورا بها حتى أتته الامدادات ثم هزم المصريين وغرق بطليموس فى النيل فارجع قليوبطره الى الملك حيث كان أحضرها معه من الشام ليصلح بينها وبين أخيها وأشرك معها فى الحكم أخاها الثانى بطليموس الثالث عشر الملقب بطليموس الشاب حسب وصية بطليموس الزامر الا أنها

فقتلته مسموما بعد سفر قيصر من الاسكندرية وانفردت بملك مصر وأما يوليوس قيصر فقد رجع الى رومة بعد أن قهر أحزاب خصمه وعليه من العظمة والكبرياء ما خوف منه أعضاء المجلس الرومانى وصارت فى يده أزمة الحكومة الرومانية فرام قلب الجمهورية واستعاضتها بالملوكية ليكون ملكا وكان الرومانيون يكرهون ذلك فتآمر عليه أعضاء مجلس رومة وقتلوه فوقعت الحكومة الرومانية بعده فى أيدى ثلاث أمراء أخر بالاشتراك بينهم وهم اقطاوس ابن بنت أخته الذى كان قد تبناه لعدم خلفه وأنطنيوس وليبيدس من قواد جيوشه فاقتسموا ممالك الدولة الرومانية وكانت مصر من قسم أنطنيوس غير أن اقطاوس لم يلبث ان جرد ليبيدس من ولايته ثم التفت الى أنطنيوس فتظلم منه لمجلس رومة بانه أطال المكث مع قليوبطره وترك مصالح رومة وتحصل من المجلس على اعلان الحرب لملكة مصر فانتشبت الحرب بحرا بين اقطاوس وبين قليوبطره وأنطنيوس على شواطئ بلاد اليونان فهربت قليوبطره بما معها من المراكب المصرية الى الاسكندرية فتبعها أنطنيوس ولما وصلا الى الاسكندرية شرعا فى الاستعدادات الحربية غير أن قليوبطره رأت من مصلحتها أن تنضم الى الاقوى فارسلت الى اقطاوس تتحبب اليه وسلمت اليه مدينة الفرما التى هى مفتاح الديار المصرية أملا فى أن تفتنه كما فتنت من قبله قيصر ثم أنطنيوس فلما خاب ظنها فى ذلك وأيست منه بالكلية قتلت نفسها سنة ٦٥٢ ق هـ حتى لا تقع أسيرة فى يد عدوها وكان أنطنيوس قد قتل نفسه قبلها حتى لا يعيش بعدها فدخلت مصر حينئذ فى حوزة الرومانيين وصارت ايالة رومانية فصاروا يرسلون اليها عمالا من قبلهم يعينهم مجلس رومة وكان العامل منهم بيده جميع السلطة الادارية والعسكرية وتابعا مباشرة لمجلس رومة أى ليس فوقه فى الدرجة الا مجلس رومة أو قيصر الرومانيين وليس تابعا لحكمدار عموم المشرق

وقد أتى على مصر فى تلك المدة بعض أيام سعيدة الا أنها كانت فى غالب أوقاتها لم تتمتع براحة ما ولم يستمر فيها الا الاختلال وعدم النظام فكانت دائما مخضبة بدماء أهلها بسبب ما يقع فيها من المجادلات الدينية والاضطهادات ضد النصارى حتى انه لكثرة

ماوقع بمصر من المآتم والمظالم فى أيام دقلطيانوس أرخ المصريون بحكمه على الرومانيين وهو التاريخ الذى يسمونه تاريخ الشهداء وتؤرخ به القبط الى الآن وهو يبتدئ من ١٣ يونيه سنة ٢٨٤ ب م ويوافق سنة ٣٣٩ ق ه وتسعة وثلاثين يوما

ومازال النواب الرومانيون على مصر متصرفين تصرف القيصر أى أن الواحد منهم كان فاعلا مختارا مرخصا فى الملكية والعسكرية الى أيام قسطنطين الذى نقل تخت مملكة الرومانيين الى القسطنطينية فغير حالة مصر الادارية بان فصل الادارة الملكية عن الادارة العسكرية فعهد برئاسة الجيوش الى قائد عسكرى يعينه القيصر وقصر المتصرف السياسى على ادارة الاقاليم والاشتغال باعمال الرى ونقل الغلال الى القسطنطينية غير أنه لم تزل البلاد مضطربة لما يقع فيها من الفتن الدينية الى سنة ٢٤١ ق ه ففى تلك السنة أصدر القيصر طيودوسيس الذى كان حاكما بالقسطنطينية أمرا بمحو الديانة المصرية القديمة والتمسك بالديانة النصرانية وأمر بهدم الهياكل المصرية والمعابد الاهلية وكلف الاسقف تيوفيل بطريرق الاسكندرية بتنفيذه فحمله التعصب على أن يفعل من العنف والجبروت مالم يسمع بمثله فى وقت آخر لمحو آثار ديانة صابئه فقد أعدم ماصنع من الفنون المصرية وكسر الاصنام وأبواب المعابد وشتت كتب الكتبخانة التى كانت من أنفس الكنوز العلمية القديمة حتى سبب ذلك دمار ما كان يمكن أن يبقى الى الآن من العلوم المصرية فانتهت حينئذ المدة الوثنية وابتدأت مدة النصرانية وهى مدة حكم مصر بالدولة الرومانية الشرقية أى الدولة السفلى

الفصـــــــل الثانى

(فى ذكر مصر مدة حكم الدولة السفلى وهى مدة النصرانية)

قد انقسمت دولة الرومانيين بعد موت طيودوسيس الى دولة رومانية غربية بمدينة رومة تحت حكم ابنه هونوريوس والى دولة رومانية شرقية بمدينة القسطنطينية تحت حكم ابنه ارقاديوس وصارت مصر تابعة للدولة الرومانية الشرقية المسماة أيضا بالدولة السـفلى ولم تزل تحت حكمها الى أن فتحها المسلمون سـنة ١٨ هجريه فى زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فانتهت حينئذ مدة النصرانية وابتدأت مدة الاســـلام

(تم الجزء الاول ويليه الجزء الثانى)

الجزء الثـانى
فى تاريخ مصر بعد الاسـلام

المقـــــــدّمة

قد صارت مصر أولا بعد أن فتحها المسلمون جزأ من الدولة العربية دولة الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين أعنى ولاية يرسلون اليها عمالا من طرفهم ثم استقلت تحت حكم ثلاث عائلات مستقلة وهى الدولة الفاطمية والدولة الايوبية ودولة المماليك ثم دخلت فى حوزة الترك حين تغلب عليها السلطان سليم فصارت ايالة عثمانية ولم تزل كذلك الى الآن وان كانت مستقلة استقلالا اداريا من عهد الهمام الاكبر محمد على باشا وقبل أن نشرع فى التكلم على هذه الدول نذكر أولا كيف نشأت الدولة العربية بظهور النبى صلى الله عليه وسلم فنقول

ان أمة العرب تنقسم الى ثلاثة أقسام عاربة ومتعربة ومستعربة فالعرب العاربة ويقال لهم البائدة هم العرب الاول الذين ذهبت عنا تفاصيل أخبارهم لتقادم عهدهم وهم قوم عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم الاولى . والعرب المتعربة هم بنو قحطان ولد سام بن نوح عليهما السلام وكانوا يسكنون أولا جنوب بلاد العرب بجهة اليمن وعمان ثم انتشرت قبائلهم فى جميع أنحاء الجزيرة سيما بعد سيل العرم فقد كان منهم قبيلة جرهم الثانية الذين نزلوا بمكة من عهد اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليهما السلام واتحدوا به فربى فى أحيائهم وتزوج منهم وكانت لهم سدانة البيت مدة من الزمن بعد بنيه وقبيلة خزاعة الذين نزلوا بمكة أيضا بعد سيل العرم وأخذوا سدانة البيت من جرهم وأقاموا فيها نحوا من ثلثمائة سنة حتى رجعت لبنى اسماعيل حيث أخذها قصى القرشى من أبى غبشان الخزاعى سنة ٥٠٧ م ثم قبيلتا الاوس والخزرج اللتان سكنتا يثرب ودعيتا بالانصار فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وغيرهم وقد كان هؤلاء العرب من بنى قحطان يغلب عليهم الميل الى الحضارة فسكنوا المدن وأسسوا الممالك فكان منهم التبابعة ملوك اليمن والمناذرة ملوك الحيرة والانبار والغساسنه ملوك الشام

وقد خضعوا بعضا من الزمن للسلطة الاجنبية فقد كان الغساسنة عمالا للرومانيين والمناذرة كذلك عمالا للعجم الذين تسلطوا أيضا على اليمن مدة من الزمن بعد طردهم الحبشة منها . وأما العرب المستعربة فهم بنو اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليهما السلام وكانوا يسكنون نجد والحجاز أى أواسط بجزيرة العرب وكان أكثر ميلهم الى البداوة فعاشوا قبائل متفرقة فى تلك النواحى ولم يخضعوا قط لسلطة أجنبية وكانت أشهر قبائلهم قبيلة قريش فقد بلغت فى القرن السادس من الميلاد مبلغا عظيما من الشرف وعلو الكلمة حيث آلت اليهم سدانة البيت الحرام بعد خزاعة حتى صار لهم نوع من السلطة والمشورة على جميع قبائل العرب وفيهم نشأ النبى صلى الله عليه وسلم من بنى هاشم فقد ولد عليه الصلاة والسلام بمكة سنة ٥٧٠ ميلاديه وكانت ولادته يوم الاثنين لعشر خلون من ربيع الاول وقد مات أبوه عبد الله بن عبد المطلب بيثرب وله من العمر شهران وقيل قبل ولادته بشهرين فحضنته أمه آمنة بنت وهب سيد بنى زهرة حتى بلغ من العمر ست سنوات ثم كفله بعد أن ماتت بالابواء بين مكة والمدينة جده عبد المطلب بن هاشم سيد بنى هاشم وأمير قريش حتى بلغ من العمر ثمان سنوات فتوفى جده عبد المطلب وقام بكفالته عمه أبو طالب شقيق أبيه فخرج به فى تجارة له الى الشام وعمره ثلاث عشرة سنة فلما نزلوا ببصرى خرج اليهم راهب اسمه بحيرا من صومعته وأخذ النبى صلى الله عليه وسلم من يده وقال لعمه سيكون لهذا الصبى شأن عظيم ينتشر ذكره فى مشارق الارض ومغاربها ولما كمل له من العمر خمس وعشرون سنة صار اسمه فى قومه الامين لما جمع فيه من الامور الصالحة فعرضت عليه خديجة بنت خويلد وكانت ذات شرف ويسار أن يخرج بمالها تاجرا الى الشام فأجابها الى ذلك وخرج ثم رغبت فيه وعرضت نفسها عليه فتزوجها وعمرها يومئذ أربعون سنة وأقامت معه الى أن توفيت بمكة اثنتين وعشرين سنة ولم يتزوج عليها فى حياتها وأولاده منها القاسم والطيب والطاهر وعبد الله وقد ماتوا صغارا وفاطمة زوج على بن أبى طالب وزينب زوج أبى العاص ورقية وأم كلثوم تزوج

بهما عثمان بن عفان واحدة بعد الاخرى وأما ابراهيم فمن مارية القبطية وقد مات صغيرا أيضا ولما كمل له أربعون سنة أرسله الله تعالى للناس كافة بشيرا ونذيرا وأيده بجميع المعجزات التى أيد بها المرسلين قبله وخصه بالقرآن الكريم الذى هو أعظم المعجزات المحفوظ من كل طارئ مادامت الارضون والسموات فاظهر الدعوة فكان أول من آمن به خديجة زوجته وعلى بن عمه وزيد مولاه وأبو بكر صديقه ثم دعا أبو بكر بعضا من أشراف قريش منهم عثمان بن عفان الى الاسلام فأسلموا وجاء بهم الى النبى فآمنوا به ثم صار يزداد عدد المؤمنين يوما فيوما فأسلم عمه حمزة وأسلم عمر بن الخطاب وكان من أشد المعارضين له صلى الله عليه وسلم فازداد غيظ قريش وصارت كل قبيلة تعذب من آمن منها فأذن النبى صلى الله عليه وسلم لمن ليس له عشيرة تحميه فى الهجرة الى الحبشة وأما هو عليه الصلاة والسلام فقد منع عنه عمه أبو طالب ابناء قريش فلما مات أبو طالب عمه (٦١٩م) وماتت خديجة زوجته (٦٢٠م) أصابته قريش بعظيم من أذى فعزم على أن يترك مكة للقرشيين فذهب أولا الى الطائف ثم عاد الى مكة ومنها هاجر الى المدينة وهى يثرب بعد أن بايع أهلها بيعتى العقبة على منعه من أعدائه فأمر المؤمنين بالمهاجرة اليها وخرج هو ومع أبى بكر فأقاما ثلاثة أيام بغار فى جبل ثور على بعد ثلاثة أميال من مكة جنوبا ثم وصلا الى المدينة بعد ستة أيام ولحقهما بها على بن أبى طالب ولذا دعى أهل المدينة بالانصار وأهل مكة بالمهاجرين وكانت الهجرة فى ٨ ربيع الاول من السنة الرابعة عشرة من بعثته صلى الله عليه وسلم (١٦ يوليه سنة ٦٢٢ م) وفى السنة الثانية منها كانت غزوة بدر وفى الثالثة حصلت وقعة احد وفى الثامنة أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وفتحت مكة فأمر النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين أن لا يقتلوا فيها الا من قاتلهم وأمن من دخل المسجد ومن أغلق على نفسه بابه وكف يده ومن تعلق باستار الكعبة سوى قوم يؤذونه وأسلم أبو سفيان وهو عظيم مكة من تحت السيف وفى السنة العاشرة حج عليه الصلاة والسلام حجة الوداع ثم وعك ومرض وتوفى يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من

ربيع الاول سنة ١١ من الهجرة بعد أن نصح الانام وبلغ الرسالة الى جميع العالم وكاتب بها الملوك صلى الله عليه وسلم وكان عمره ثلاثا وستين سنة وقد توفى عن تسع من الزوجات غير مارية سريته أشهرهن عائشة بنت أبى بكر وجملة زوجاته خمس عشرة جمع بين احدى عشرة منهن ولما توفى أراد أهل مكة من المهاجرين رده اليها لانها مسقط رأسه وأراد أهل المدينة من الانصار دفنه بالمدينة لانها دار هجرته ومدار نصرته ثم دفنوه بالمدينة فى حجرته حيث قبض ثم اجتمع المهاجرون والانصار للمبايعة بالخلافة فبايعوا أبا بكر الصديق وكان أول من بايعه عمر بن الخطاب رضى الله عنه

الباب الاول

(فى الدولة العربية ومصر مدة حكمها وفيه ثلاثة فصول)

الفصل الاول

(وفيه مطلبان)

(المطلب الاول فى ذكر الخلفاء الراشدين)

الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم أجمعين أربعة أبو بكر الصديق (١١ – ١٣ ﻫ) وعمر بن الخطاب (١٣ – ٢٣ ﻫ) وعثمان بن عفان (٢٣ – ٣٥ ﻫ) وعلى بن أبى طالب (٣٥ – ٤١ ﻫ) بويع لهم بالخلافة الواحد بعد الآخر من بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فقاموا بالامر من بعده على التعاقب مدة ثلاثين سنة نشروا فى أثنائها الديانة المحمدية نشرا عظيما وأوسعوا الدولة الاسلاميه اتساعا غريبا فقد كانت مدتهم أعظم المدد الاسلامية فى تعظيم الدين ونشره بالفتوحات خصوصا خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فانه هو الذى فتح معظم فتوحات تلك المدة فان أبا بكر لقصر مدته وخروج

معظم قبائل العرب فى مبدأ الامر عن طاعته لم يتمكن الامن فتوح بلاد العراق وجزء صغير من بلاد الشام فانه بعد أن ردّ القبائل المرتدة الى الطاعة وأوجد وحدة بلاد العرب على يد خالد بن الوليد وغيره من الامراء أمر هذا القائد بالمسير الى بلاد العراق فافتتحها وتملك على الحيرة والانبار ثم سيره أبو بكر رضى الله عنه من هنالك الى بلاد الشام لمساعدة أبى عبيدة بن الجراح الذى كان أرسله لفتوح تلك البلاد فافتتحا بعض بلادها فلما تولى الخلافة عمر بن الخطاب أتم فتوحها على أيدى هذين القائدين وذهب بنفسه للمعاهدة مع بطريرق بيت المقدس ثم افتتح أرض الجزيرة فصارت حينئذ جميع قبائل العرب بدون استثناء أمة واحدة خاضعة لامير واحد ثم دخلت جيوشه بلاد أرمينية ووصلت الى بلاد القوقاز وقد سير عمرو بن العاص لفتوح مصر ففتحها وضم اليها برقه وبلاد النوبة وأرسل سعد بن أبى وقاص لفتوح بلاد العجم فوصل العرب اذ ذاك الى حدود بلاد الهند ودخل فى حوزتهم خراسان وخوارزم ثم زاد عثمان بن عفان رضى الله عنه على ذلك أفريقية التى افتتحها عبد الله بن أبى سرح عامله على مصر وجزائر قبرص وكريد وكوس ورودس بالبحر الابيض المتوسط التى افتتحها معاوية عامله على الشام فصارت مملكة العرب ممتدة حينئذ من حدود بلاد الهند شرقا الى البحر الابيض المتوسط وبلاد افريقيه غربا ومن شواطئ نهر جيحون وبحر الخزر شمالا الى الاقيانوس الهندى وبلاد النوبة جنوبا

هذا ومع عظم هذه الدولة وما كان عليه هؤلاء الخلفاء من السلطة والشوكة فانهم لم يخرجوا عن حالة الزهد والقناعة التى كانوا عليها أيام النبى صلى الله عليه وسلم فلم يلتفتوا الى زينة أو فخار أو ثروة بل استمروا على عيش الكفاف والاخذ بناصر الضعيف والنظر الى الفقراء والمساكين فان عمر رضى الله عنه لما سافر من المدينة الى فلسطين للتملك على بيت المقدس لم يصحب معه سوى غلام له وكان راكبا على ناقة يتناوبها مع غلامه حاملا على مقدم رحلها حقيبتين مملوأ احداهما دقيقا والاخرى تمرا ومعلقا عليه مزادة ماء وكان يتصدق من ذلك على من صادفه فى طريقه وقد كان هؤلاء الخلفاء

رضى الله عنهم يقضون فى الاحكام بغاية الحكمة والعدالة فانهم كانوا يسوون بين الغنى والفقير والرفيع والحقير يؤيد ذلك ما وقع فى أيام عمر رضى الله عنه حيث قال لجبلة بن الايهم ملك الغسانيين حين اشتكا اليه رجل اما أن ترضيه بالمال أو يلطمك كالطمته فقال له جبلة ألا يفضل عندكم ملك على سوقة قال كلا بل كلاهما فى الحق سواء وقد بويع لهم جميعا بالمدينة فاتخذوها مركز الحكومتهم الا عليا رضى الله عنه فانه انتقل منها الى الكوفة ببلاد العراق ليتمكن من اقماع الذين خرجوا عن طاعته ولم يزل بها حتى قتل فبويع لابنه الحسن بها فلم يلبث أن تنازل عن الخلافة لمعاوية أمير الشام فانتقلت الخلافة حينئذ الى بنى أميه

(المطلب الثانى)

(فى ذكر عمرو بن العاص وفتوح العرب لمصر)

قد كان فتوح العرب لمصر فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب فانه بعد أن عاد الى المدينة من فتوح بيت المقدس رد معه من جيش الشام عمرو بن العاص ليسيره الى مصر وكان عمرو بن العاص هو الذى يحرض أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على فتوحها وكانت مصر اذ ذاك تابعة لمملكة الرومانيين الشرقيه التى كان تخت ملكها بمدينة القسطنطينيه وكان عليها عاملان من قبل هرقل قيصر الرومانيين أحدهما وهو الحاكم على الاقاليم البحريه كان من القسطنطينيه ومقيما باسكندريه والآخر وهو الحاكم على أقاليم مصر الوسطى كان يدعى المقوقس ومقيما بمدينة منف وكان يونانى الاصل مصرى المولد فلما أمر عمر بن الخطاب عمرو بن العاص بالمسير الى مصر جهزله جيشا مؤلفا من أربعة آلاف رجل فسار عمرو بهذا الجيش قاصدا أرض مصر سنة ١٨ هـ فلما بلغ رفح وهى قرية تبعد عن العريش بعشر ساعات وصله كتاب من أمير المؤمنين يأمره فيه بالانصراف عن مصر ان لم يكن قد دخلها فلم يفتحه عمرو بن العاص حتى وصل الى العريش ففتحه وتلاه على الجمهور بعد صلاة الفجر ثم سار حتى وصل الى مدينة

الفرما فحاصرها شهرا وتغلب عليها ثم تقدم الى بلبيس وتغلب عليها بعد أن حاصرها نحو شهر أيضا وأسر بها ارمانوسه بنت المقوقس وسيرها الى أبيها مكرمة فى جميع مالها ثم سار قاصدا مدينة منف فوصل الى حصن بابل وهو حصن على الشاطئ الأيمن للنيل بينه وبين الجبل المقطم فى الشمال الشرقى لمنف متصل بجزيرة الروضه بواسطة جسر من الخشب كما أن هذه الجزيرة متصلة بالشاطئ الغربى بواسطة جسر آخر وكان المقوقس قد تحصن فيه بعساكر المصريين لمقاومة العرب فنزل عمرو برجاله فيما بين الحصن والجبل المقطم وأخذ فى المهاجمة عليه مدة فابطأ عليه فتحه فكتب الى الخليفة يستمده فأمده باربعة آلاف عليهم أربعة من القواد وهم الزبير بن العوام والمقداد ابن الاسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد أو خارجة بن حذافة على القولين وشددا الحصار على الحصن فلما رأى المقوقس اقدام العرب وصبرهم على القتال ورغبتهم فيه خاف أن يظهروا على رجاله فعمد برجاله الى باب الحصن الغربى على ضفة النيل وعبروا على الجسر الى الجزيرة تاركين نفرا قليلا فى الحصن أما العرب فقد تسوروا الحصن وفى مقدمتهم الزبير بن العوام فهرب من بقى فيه فنزل الزبير وأصحابه الى باب الحصن ففتحوه وتملكوا على الحصن بعد أن حاصروه سبعة أشهر ثم عمدوا الى الجسر فتعقبوا القبط الى الجزيرة فسار هؤلاء الى منف عاصمة ولايتهم وبعد أن عبروا النيل رفعوا الجسر عنه فتوقف العرب عن تعقبهم حيث لم يستطيعوا عبور النيل فأخذ المقوقس حينئذ فى مكاتبة عمرو بامر الصلح فبعث اليه عمرو عشرة أنفار فى مقدمتهم عبادة بن الصامت للمخابرة معه على أن يقبلوا واحدة من ثلاث اما الاسلام أو الجزية أو الجهاد ثم اجتمع عمرو والمقوقس وعقدوا معاهدة الصلح على أن يعطى للمصريين الامان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وهم يدفعون الجزية للمسلمين ولما تم التعاهد بين المسلمين والقبط هاجر جميع من كان بين هؤلاء من الروم ملتجئين الى الاسكندريه أما عمرو فعزم على النزول على الاسكندريه وكانت محصنة تحصينا عظيما وبها كثير من العسكر فامر عسكره بالرحيل اليها فبينما هم يتحملون للسير واذا بعمرو قد أخبر

بأن زوج يمام قد باض على خيمته واشرف على الفقس فأمر عمرو بترك الخيمة قائمة الى حين رجوعه من فتوح الاسكندريه ثم سار قاصدا هذه المدينة فحاصرها المسلمون أشهرا وهم لا يتمكنون من فتحها لشدة تحصينها ثم ضيق عمرو الحصار عليها حتى التزم المحاصرون بعقد الصلح بعد مدافعة شديدة فسلموا المدينة بعد حصارها أربعة عشر شهرا فدخل عمرو مدينة الاسكندريه فى أول يوم جمعه من شهر المحرم سنة ٢٠ هجريه وقت صلاة الجمعه ثم كتب لامير المؤمنين عمر بن الخطاب يخبره بفتوحها وما تحتوى عليه فكتب اليه عمر يهنئه بالظفر وولاه عاملا على الديار المصريه فوضع الحرس الكافى فى الاسكندريه ورجع الى الموضع الذى كان ترك فيه خيمته وعسكر هناك بجيوشه على شاطئ النيل فبنت العسكر فى أول الامر حول الخيمة أكواخا صغيرة ثم شيدت الامراء ورؤساء الجيوش قصورا مشيدة فتكون من مجموع هذه المبانى مدينة عظيمة سميت بالفسطاط ومعناه الخيمة حفظا لذكر الحادثة التى كانت سببا فى تأسيسها فجعلها عمرو عاصمة مصر واتخذها مركزا لاقامته وبنى بها جامعه الموجود باسمه فى مصر العتيقة الآن وتفرغ حينئذ لترتيب الحكومة فقسم مصر الى مقاطعات وجعل على الاسكندريه المقوقس وعلى الوجه القبلى عبد الله بن سعد بن أبى سرح وتولى بنفسه صلات خراجها وكان قد جعل على كل فرد من الاهالى دينارين جزية خلا الشيوخ والنساء ومن لم يبلغ الحلم فجبى من الاموال سنويا ١٢ مليونا دينارا وقد أمره عمر بن الخطاب رضى الله عنه بان يحفر خليجا من الفسطاط الى البحر الاحمر لسهولة النقل الى مكة والمدينة فحفره وسماه خليج أمير المؤمنين ولم يزل عاملا على مصر حتى عزله عثمان بن عفان سنة ٢٦ هجريه وولى مكانه عبد الله بن أبى سرح فثقل الضرائب على الاهالى حتى وصلت الى ١٤ مليونا دينارا سنويا ثم تولى عليها قيس بن سعد ثم محمد بن أبى بكر من قبل على بن أبى طالب رضى الله عنه ثم عاد اليها عمرو سنة ٣٨ هجريه من قبل معاوية فلم يزل واليا عليها حتى مات سنة ٤٣ هجريه

الفصل الثانى

(وفيه مطلبان)

(المطلب الاول فى الدولة الاموية)

أقامت هذه الدولة احدى وتسعين سنة (٤١ - ١٣٢ هجريه) تحت حكم أربعة عشر خليفه أولهم معاوية بن أبى سفيان الذى كان ولاه عمر بن الخطاب عاملا على بلاد الشام وأقره عليها عثمان بن عفان مدة خلافته ثم خرج على على بن أبى طالب حين تولى الخلافة ووقعت بينهما حروب عديدة فلما قتل على وتنازل ابنه الحسن عن الخلافة استقر أمرها لمعاوية فانتقل حينئذ مركز مملكة العرب الى بلاد الشام بمدينة دمشق وانحرفت المملكة العربية عن منهج الخلافة البسيط الى أبهة الملك وعظمته ثم انتقلت الخلافة أيضا من الحالة الانتخابية الى الحالة الوراثية حيث عهد بها معاوية الى ابنه يزيد فهاجت الامة الاسلامية حينئذ ولاقى بنو أمية من أهل العراق والحجاز مقاومة عظيمة فانه بموت معاوية أحضر أهل العراق الحسين بن على من المدينة ليبايعوه بالخلافة فقدم اليهم فى سبعين نفرا من عائلته غير أنه لما وصل الى الفرات قابلته جيوش يزيد عند كربلا فاحدقت به من كل جانب فقتل هنالك وأما أهل المدينة ومكة فبايعوا عبد الله بن الزبير خليفة عليهم فاستمر الاضطراب والشقاق الى أن كانت أيام عبد الملك بن مروان خامس خلفاء هذه الدولة فولى الحجاج بن يوسف عاملا على الحجاز فحارب عبد الله بن الزبير حتى ظهر عليه وقتله بمكة ثم صرفه عبد الملك الى العراق وخراسان وسجستان فهدأت تلك البلاد واستتبت الراحة فيها وحينئذ تفرغت الامة العربية للفتوحات ثانيا فأمر عبد الملك حسنا عامله بمصر بفتوح شمال أفريقا ثانيا الذى كان فتحه عقبة بن نافع فى أيام معاوية وتغلب عليه البربر ثانيا ثم لما خلفه ابنه الوليد أذن لعامله على بلاد المغرب موسى بن نصير بان يفتح بلاد اسبانيا فارسل موسى أحد المغاربة المدعو طارق بن زياد بجيش الى تلك البلاد ثم لحقه بجيش آخر فأتما فتوحها ومدا مملكة العرب الى جبال

البرنات التى صارت آخر حدود الدولة العربية من جهة الغرب فان العرب لما عبروها ودخلوا فرانسا تحت قيادة عبد الرحمن الذى خلف موسى على ولاية المغرب لم ينجحوا فى مشروعهم لانهم بعد أن وصلوا الى أواسط هذه البلاد هزمهم كارلوس مارتللو (شارل مارتل) بين طورس و بواطير فتقهقروا ثانيا الى الجبال المذكورة وأما من جهة الشرق فقد امتدت المملكة العربية الى بلاد الهند فانه فى عهد هذا الخليفة أرسل الحجاج محمد بن القاسم الثقفى لفتوح بلاد الهند الشمالية فعبر محمد نهر السند ووصل الى جبال همالياو نهر الكنك غير أن العرب لم تحفظ هذه البلاد فكانت هذه الفتوحات آخر تقدم العرب شرقا وغربا فى فتوحاتهم التى انقطعت من يومئذ وآخر ماوصلت اليه دولتهم من الامتداد فانها كانت اذذاك فى غاية عظمها ونهاية اتساعها ممتدة من نهر السند ووادى كشمير شرقا الى الاقيانوس الاطلانطيقى غربا ومن بلاد التركستان وبحر الخزر وجبال القوقاز والبحر الابيض المتوسط (الذى يملكون فيه جزائر رودس وقبرص وكريد وجزائر الباليار) وجبال سويسه الجنوبية والبرنات شمالا الى صحراء أفريقيا وبلاد الايتيوبية وبحر الهند لغاية مصب نهر السند فيه جنوبا وهذا الامتداد يبلغ طوله نحو الالف وثمانمائة فرسخ وهو مالم تصل اليه دولة قط وقد وصلت اليه دولة العرب فى أقل من مائة سنة وبعد أن بلغت دولة بنى أمية هذه الدرجة القصوى فى أيام الوليد ومن خلفه الى آخر أولاد عبد الملك اضطربت أمورها حتى تقوى حزب بنى العباس وقدروا أخيرا على اظهار الدعوة لهم بجهة خراسان فى أيام مروان الثانى ابن محمد آخر الخلفاء الامويين وبويع بالخلافة لابى العباس السفاح بالكوفة فى ربيع الاول سنة ١٣٢ ﻫ فوقعت الحرب بين مروان وأبى العباس عند نهر الزاب بقرب الموصل فانهزم مروان وهرب الى مصر فقبض عليه بأبوصير وقتل فاستولى على الخلافة حينئذ أبو العباس وأوقع القتل فى بنى أمية فلم ينج منهم الا عبد الرحمن الداخل ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان فانه هرب الى بلاد الاندلس فأسس فيها دولة أموية جديدة بقرطبة تسمى بالدولة المروانية بعد أن انقرضت دولتهم من الشام وظهرت دولة بنى العباس

(المطلب الثانى)
(فى ذكر مصر فى عهد الدولة الاموية)

ولما آل أمر الخلافة الى بنى أمية دخلت مصر تحت حكم هذه الدولة أيضا فكان يرسل اليها عمال من طرف الخلفاء ينتخبون أحيانا من أعضاء عائلة الخلافة وكان مقرهم بمدينة الفسطاط عاصمة مصر فى عهد هذه الدولة أيضا الا أن الخلفاء كانوا يسرعون فى تغييرهم خوفا من أن يستقلوا بالبلاد اذا أقاموا فيها زمنا طويلا فلكثرة تغييرهم كانت البلاد دائما فى حالة تقلب واختلاف لم يستقر لها حال ولذا لم نجد شيأ يستحق الذكر فى حكم أغلبهم فان الواحد منهم كان يحضر الى مصر ثم يصرف عنها بدون أن يبدى فيها شيأ وقد اشتهر بعضهم بالعدل والانصاف والبعض وهو الاكثر بالجور والاعتساف وكان أشهر من يؤثر عنه بعض الحوادث منهم عبد العزيز بن مروان الذى ولاه عليها أبوه مروان بن الحكم رابع خلفاء هذه الدولة وأقام بها أكثر من عشرين سنة فلم تر مصر راحة ولا أمنا كما رأت فى أيامه وهو الذى بنى مقياس النيل الذى كان بحلوان أول مقياس للنيل بناه المسلمون فى مصر وقد تولى بعده على مصر ابن أخيه عبد الله بن عبد الملك بن مروان فجعلت فى أيامه الكتابة فى دواوين مصر باللغة العربية بعد أن كانت لاتزال الى ذلك الحين باللغة القبطية ثم اسامة بن يزيد الذى ولاه عليها سليمان بن عبد الملك سابع خلفاء هذه الدولة ولقبه أمير الخراج فقاست منه الاهالى جميع أنواع الظلم والجور فانه لم يهتم الا فى جمع الاموال ولو بقوة السلاح وجعل على كل من سافر بالنيل ضريبة قدرها عشرة دنانير يشترى بها ورقة مرور بالنهر حتى جلب عليه ذلك سخط جميع الاهالى وهو الذى بنى سنة ٩٧ هجريه باذن من الخليفة المذكور مقياس النيل الموجود الآن فى الجهة الجنوبية من جزيرة الروضه بدلا من المقياس الذى كان بحلوان وانهدم فى السنة المذكورة

الفصـــــل الثـالث

(وفيـــه أربع مطالب)

(المطلب الاول فى الدولة العباســـــية)

أقامت هـذه الدولة فى الخلافة الاسلامية مدة ٥٢٤ سـنه (١٣٢ - ٦٥٦ هـ) جلس فى أثنائها على كرسى الخلافة سـبعة وثلاثون خليفة أولهم أبو العباس الملقب بالسفاح الذى تغلب على بنى أمية وأخذ منهم الخلافة وبظهورها ابتدأ عصر التمدن والعلوم والمعارف والآداب والفنون والصناعة والتجارة عند الامة العربية فانه وان كان عند ماظهرت هـذه الدولة ابتدأ تجزئ مملكة العرب فاستقلت اسبانيا بنفسها لتباعدها عن كرسى المملكة بدون أن تجد مقاومة من العباسيين ولم تلبث بلاد المغرب أن قام فيها مستقلا الدولة الاغلبية بالمغرب الاوسط ثم الدولة الادريسية بالمغرب الاقصى اللتان قامت على أثرهـما الدولة الفاطمية الا أن أوائل عصرها كانت أعظم أزمان العرب فى الشرف رونقا و رفعة وقد ابتدأ مجدها من أيام أبى جعفر المنصور ثانى خلفائها الذى أسس مدينة بغداد على شاطئ الدجلة سـنة ١٤٥ هجرية فصارت عاصمة المملكة من عهده ومنها انتشرت جميع العـلوم والمعارف فى سائر البلاد الاسـلامية و وصلت هذه الدولة الى أعلى درجة المجد والشوكة فى أيام هرون الرشيد خامس خلفائها وابنه المأمون سابعهم فقد كانا من أعظم رجال العصر همة وذكاء وعدلا وحبا للترقى والتمدن والعلوم ونشر المعارف وحماية الصنائع وكل مايؤول لعمار البلاد ومن بعدها لم تبق شوكة المملكة الامدة يسـيرة ثم وقعت الخلافة فى الفوضوية وابتـدأ زمن انحطاطها من عهد المتوكل على الله عاشر خلفاء هذه الدولة فان المماليك الاتراك الذين كان أدخلهم فى الحرس الملوكى المعتصم ثامن خلفائها كانوا قد كثروا فى بغداد وقويت سلطتهم فاستولوا على المملكة وصار بيدهم الحل والعقد والولاية والعزل ثم زادت

شوكتهم فاستضعفوا الخلفاء وسطوا عليهم فكان الخليفة في يدهم كالاسير ان شاؤا أبقوه وان شاؤا خلعوه وان شاؤا قتلوه حتى ضعف أمر الخلفاء عند ولاة الاقاليم فنبذوا طاعتهم واستبدوا بالاحكام فتجزأت المملكة حينئذ وظهرت فيها العائلات المستقلة شرقا وغربا فقام في الشرق الدولة الطاهرية بخراسان ثم الدولة الصفارية بسجستان وخراسان وطبرستان ثم الدولة السامانية بخوارزم وماوراء النهر حتى خرجت جميع آسيا الشرقية من يد الخلفاء وقام في الغرب الدولة الطولونية بمصر والشام حتى عم الاضطراب داخلا وخارجا فكان لا ينقطع من داخل بغداد لوجود الاتراك ولا من خارجها لكثرة ظهور تلك الامارات الصغيرة حولها اما على التعاقب أو في آن واحد حتى انه لم تكن أيام الراضي بالله الخليفة العشرين من هذه الدولة الا وقد أحيطت بغداد من جميع الجهات بامارات مستقلة فكانت بلاد فارس في يد بني بويه وأرض الجزيرة وديار بكر في يد بني حمدان وخراسان وماوراء النهر في يد بني سامان ومصر والشام في يد الاخشيد وغير ذلك ولم يبق في يد الراضي الا بغداد وما والاها هذا فضلا عن وجود دولتين أخريين يدعيان الحق في الخلافة وهما الدولة المروانية بالاندلس والدولة الفاطمية بالمغرب فكان هاتان الدولتان ينازعانها الامامة الدينية والامارات المذكورة تنازعها السلطة الادارية التي فقدها الخلفاء كلية حتى في بغداد من عهد الراضي فانه لخوفه من الاتراك ابتدع وظيفة أمير الامراء وهي وظيفة وزير أعظم يلقب أمير الامراء سلمه الراضي رئاسة الجيوش وادارة الاموال حتى صار مطلق التصرف بيده جميع أمور المملكة وكان يضاف اسمه الى اسم الخليفة في الخطبة فتنازع هذه الوظيفة الامراء أيضا فلم تلبث أن وقعت في يد بني بويه فأقاموا فيها أكثر من مائة سنة وكانوا هم الحكام في الدولة العباسية حقيقة ولهم فضل الاستمرار على تنشيط العلوم والمعارف وأما الراضي ومن خلفه فتركوا أمور المملكة واقتصروا على قصورهم فصارت الخلافة امامة دينية ليس للخلفاء منها الا الاسم فقط حتى انه عندما قامت الدولة الفاطمية بمصر فيما بعد كانت دولة العرب في الشرق تشتمل على ثلاث ممالك

مستقلة الدولة الفاطمية وهى تدعى الامامة أيضا والدولتان البويهية والسامانية وهما يعترفان بالامامة للخلفاء العباسيين الذين حفظوا تلك الامامة الدينية فى بغداد الى مجيء التتار وتركوا السلطة الادارية الى هاتين الدولتين ثم الى الاولى منهما والدولة الغزنويه التى خلفت الدولة السامانية فى آسيا الشرقية وامتدت من منابع نهر الكنك ونهر السند الى بحر الخرز ثم الى الدولة السلجوقية التى خلفتهما وامتدت من حدود الهند الى بغاز القسطنطينية ثم تجزأت الى سلطنات مستقلة فكان منها سلطنة ايقونية التى صارت تركية آسيا ونتج عن تجزئها أن حكام الولايات التى كانت تابعة لها المدعوين أتابك أى أمراء استقلوا بولاياتهم فكان منهم الاتابك عماد الدين زنكى صاحب الموصل أبو نور الدين فلما قصد بغداد هولاكو اخو منجوخان ملك التتار والمغول فى أيام المستعصم آخر الخلفاء العباسيين ببغداد وتملك عليها عنوة فى صفر سنة ٦٥٦ هجرية انقرضت الخلافة العباسية من بغداد كلية وأما بنو العباس فقد انتقلوا الى مصر واستقروا بها نحو الثلاثة قرون تحت رعاية المماليك وكان لهم الامامة وما يتعلق بالامور الدينية حتى تملك العثمانيون على مصر فأفضت الخلافة اليهم ولم تزل لسلاطينهم الى الآن

(المطلب الثانى)

(فى الكلام على تمدن العرب من عهد الدولة العباسيه)

قد عرفنا ما وصلت اليه دولة العرب من الامتداد والقوة والشوكة فى القرن الاول من الهجرة والآن نتكلم على ما وصلت اليه هذه الامة من التمدن والمعارف والثروة والرفاهية فى القرن الثانى منها فان العرب بعد أن فتحوا تلك البلاد الشاسعة وتحصلوا منها على الاموال الوافرة فترت عندهم تلك الحماسة الاولى فابطلوا همتهم فى الحروب والفتوحات واستعاضوها بمطالعة العلوم ونشر الفنون والصنائع وصاروا يؤثرون الشغل والتجارة والتمتع باتعابهم والسكنى بسلام على الحروب وفتح الممالك فان الثروة

التى تحصلوا عليها و الاموال الوافرة التى صارت بايديهم عوّدتهم على الترف ونضارة العيش فارتاحوا للحياة الراقهة ونعيم الدنيا حتى أسرفوا فى التمتع بهما فان الملكة زبيده زوجة هارون الرشيد ما كانت تلبس الا ملابس الحرير ولا تستعمل الأوانى الذهب مرصعة بالجواهر النفيسة وأقمشة منسوجة بخيوط من فضه و يقال انه كان يوجد فى قصر المأمون من الفرش ثمانية وثلاثون ألف قطعة منها اثنا عشر ألف قطعة وخمسمائة مطرزة بالذهب واثنان وعشرون ألف بساط وسبعة آلاف خصى منهم ثلاثة آلاف من السودان وغير ذلك من الخدم والمستحفظين وقد أمر باقامة شجرة مسمطة من الذهب مرصعة باللؤلؤ على شكل الفاكهة فى صالة المقابلة عند مقابلته لسفير الروم وهكذا صاروا ينفقون الملايين من الدنانير فى بناء المدن اللطيفة والقصور المشيدة والجوامع المزخرفة ويكثرون البذل فى عطاياهم وفى حجهم فقد فرّق المأمون يوما على خواصه أكثر من اربعمائة ألف دينار وصرف المهدى فى حجة واحدة ستة ملايين دينار غير أنهم أخذوا ينشطون مع ذلك العلوم والفنون والتجارة فاول من اعتنى بذلك منهم أبو جعفر المنصور الخليفة الثانى من الدولة العباسية التى بظهورها انقضى عصر الفتوحات وابتدأ عصر التمدن عند الامة العربية ثم حرص على دوام هذه الحركة العلمية خلفاؤه من بعده حتى انه لما أفضت الخلافة الى الخليفة السابع منهم عبد الله المأمون أعظم الخلفاء فى المعارف وعلاء الفكرة اعتبر المعارف أنها أعظم شئ فى سلام الامة وسعادتها فاقبل على طلب العلم فى مواضعه وأكثر من فتوح المدارس وتأسيس الكتبخانات وجعلها عمومية لكل أحد وجمع العلماء من يونان وفرس وقبط وكلدان واستحضر الكتب من سائر البلدان حتى صارت بغداد مقر المعارف ومركز العلوم فكان يدخل اليها كل يوم مئات من الجمال محملة بالكتب من جميع الاقطار وكانوا يترجمون أحسنها الى اللغة العربية فترجموا جملة مؤلفات يونانية فى الفلسفة والفلك والرياضيات حتى تقدمت عندهم تلك العلوم واكتشفوا فيها اكتشافات مهمة وبنوا الرصدخانات ووضعوا فيها الالات العظيمة المدهشة للعقول وقد اجتهدوا كثيرا

فى تقدم علم الطب فاسسوا الاسبتاليات وصاروا يمتحنون الاطباء قبل التصريح لهم بالعلاج وأسسوا معامل للاجزخانات واكتشفوا كثيرا من النباتات الطبيه وابتدؤا علم الكيميا وقد اهتموا أيضا بالعمارة وفن الموسيقى وكانوا يشرفون الزراعة وأما الصناعة فقد تقدمت عندهم تقدما عظيما خصوصا صناعة الآلات الميكانيكيه كما يعلم ذلك من الساعة التى أرسلها هارون الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا وقد استخرجوا كثيرا من المعادن والاحجار فاستخرجوا معادن الحديد من خراسان ومعادن الرصاص من كرمان وغير ذلك واشتهرت عندهم صناعة الاقمشة اللطيفة بالموصل وحلب ودمشق من مدن العراق والشام وأما صناعة النقش والتصوير فلم تتقدم عندهم كثيرا لاباء الشريعة لها غير أنهم أكثروا من وجود الآثارات اللطيفة فى المدن الشهيرة مثل بغداد والبصرة والموصل والرقة وسمرقند حتى فاقوا جميع الامم المعاصرة لهم فى العلوم والفنون والصنائع فاخذوا فى أسباب التجارة وسعوا فى احداث محطات تجارية فى ممالكهم فكان ذلك سببا لانتشارهم فيما بعد فى آسيا وأفريقيا وتقدم قوافلهم شمالا الى بلاد التتار والمغول على حدود سيبيريه وشرقا الى بلاد الصين وجزائر السوند بالاوقيانوسيه وجنوبا الى بلاد السودان والزنجبار وموزمبيق ومداغشقر

(المطلب الثالث)
(فى ذكر مصر فى عهد الدولة العباسية)

ولما أفضت الخلافة الى بنى العباس صارت مصر تحت حكمهم أيضا حيث كانت جزأ من الدولة الاسلامية الا أن حكمهم فى مصر لم يمتد الا الى سنة ٣٥٨ هجرية أعنى الى أيام أبى العباس بن المقتدر الملقب بالمطيع لله وهو الخليفة الثالث والعشرون من العباسيين وقد استقلت مصر أثناء تلك المدة مرتين استقلالا اداريا فاستقلت أولا نحو السبعة وثلاثين سنة تحت حكم العائلة الطولونية حيث انفرد بادارتها أحمد بن طولون فى أيام المعتمد على الله ابن المتوكل الخليفة الخامس عشر منهم وأسس فيها الدولة

الطولونية ثم دخلت فى حوزة العباسيين ثانيا فى عهد المكتفى بالله بن المعتضد الخليفة السابع عشر منهم واستمرت تحت سلطتهم الى أيام الراضى بالله فولى عليها أبا بكر محمد بن طغج عاملا من قبله فاستقل أيضا بادارتها وتلقب بالاخشيد وأسس فيها العائلة الاخشيدية التى أقامت أربعا وثلاثين سنة الى أن تغلبت على مصر الدولة الفاطمية فى عهد الخليفة العباسى المطيع لله فخرجت مصر بالكلية من يد العباسيين وقد استعمل بنو العباس نفس السياسة التى استعملها بنو أمية فى كيفية انتخاب العمال وفى سرعة تغييرهم فاستمرت مصر فى أيامهم على الحالة التى كانت عليها فى أيام بنى أمية وزاد بنو العباس فى سياستهم حتى نتج عنها أن العمال صاروا لا يجتهدون مدة اقامتهم بمصر الا فى الحصول على المنفعة الشخصية كالثروة وغيرها بدون نظر الى مصلحة البلاد ومن مآثر هذه الدولة بمصر بناء مدينة العسكر التى جعلت مركزا لحكومة مصر فى عهدها وهى مدينة صغيرة تحتوى على طرق منظمة وأسواق وبيوت مشيدة مسكونة جميعها بالعساكر كانت توجد فى شمال الفسطاط خارج سوره وتتصل شمالا بهضبة قليلة الارتفاع تسمى جبل يشكر وتنتهى غربا عند النقطة المسماة قنطرة السباع أسسها أبو عون عبد الملك بن يزيد الذى حضر الى مصر مع صالح بن على ليقتفى أثر مروان الجعدى وذلك أن جيشه كان قد نزل بتلك الجهة فأمر أصحابه بالبناء فيها فابتنوا فيها تلك المدينة الصغيرة التى دعيت بالعسكر ثم بنيت فيها دار الامارة التى صار ينزل فيها أمراء مصر من بعد أبى عون الى أن بنى أحمد بن طولون القطائع وأقام فيها قصره فانتقل تخت مصر الى هذه المدينة ومن مآثر هذه الدولة أيضا الزيادات التى أضافها المأمون عند مجيئه مصر الى مقياس النيل الذى أسسه اسامة بالروضة فقد عمل له قبة مشيدة البناء وهو الذى أسس الحوض والعامود الموجودين الى الآن بالمقياس المذكور وكتب الكتابة الكوفى الموجودة باوجه الحوض من داخله التى لم يزلها الى الآن تمادى الزمن ثم تجديد بناء مقياس النيل بالفسطاط فى أيام المتوكل على الله حيث كان انهدم بزلزلة فى أيامه فأمر ببنائه جديدا وسمى بالمقياس الجديد

(المطلب الرابع)

(فى الدولتين الطولونيه والاخشيديه وفيه فرعان)

لم تكن هاتان الدولتان من الدول الملوكيه وانما هما عائلتان أصلهما من عمال الدولة العباسيه على مصر فاستقلتا بها كما استقل غيرهما من العائلات التى ذكرناها فى جميع انحاء الدولة العباسيه فكان امراؤهما يعترفون بالتبعية للخلفاء ظاهرا وقد نبذوا طاعتهم باطنا واستقلوا بادارة البلاد وانفردوا بتدبيرها ولذلك يعد زمن حكم العائلتين المذكورتين فى مصر فى مدة حكم الدولة العباسية عليها وقد امتدت سلطتهما على مصر والشام وأرض الجزيره لغاية نهر الفرات وعلى جزء من بلاد العرب أيضا

(الفرع الاول فى الدولة الطولونيه)

حكمت هذه الدولة نحو السبعة وثلاثين سنة (٢٥٥ - ٢٩٢ هـ) تحت حكم خمسة أمراء من ذرية طولون وهو مملوك تركستانى أسر فى احدى المواقع الحربيه وجىء به الى ابن أسد الصمامى عامل المأمون على بخارى فارسله ابن أسد الى المأمون ضمن المماليك الذين أرسلهم اليه سنة ٢٠٠ هجريه فاعجب المأمون تناسب أعضائه وقوة بنيته فالحقه بحاشيته ومازال يرقيه حتى جعله رئيس حرسه ولقبه بامير الستر فصرف طولون نحوا من عشرين سنة فى هذا المنصب فى أيام المأمون والمعتصم فلما توفى فى أيام المتوكل على الله سنة ٢٣٩ هجريه رأى الخليفة فى ابنه أحمد المولود سنة ٢٢٠ هجريه اللياقة للقيام مقام أبيه فى امارة الستر ولو أنه لم يبلغ التاسعة عشرة من العمر وكان أحمد قد تعلم وتربى تربية حسنة حتى اشتهر بالعلم والشجاعة والتقوى فاحبه كثير من العلماء ومال اليه كثير من الاتراك منهم ياركوج من كبراء حرس الخليفة فزوجه بابنته وهى التى رزق منها بابنه عباس وقد شب أحمد بن طولون بين الدسائس والثورات التى كانت للاتراك ولكنه لم يتداخل فيها قط بل عكف على توسيع معارفه والاشتغال بالعلم فسار يسافر الى طرسوس بآسيا الصغرى لتلقى العلوم بمدارسها وقد صادف أثناء رجوعه من طرسوس الى سامرا أن هجم بعض العربان على القافلة ليسلبوا منها أموالا كانت

محمولة الى الخليفة المستعين بالله فحمل عليهم أحمد بعزم شديد و ردهم على أعقابهم واستخلص منهم أموال الخليفة وكان عمره اذذاك تسعا وعشرين سنة فلما وصل الركب الى سامرا وبلغ الخليفة الخبر أعطاه ألف دينار ووهبه احدى جواريه المسماة ميه التى ولدت له ابنه الثانى خارويه سنة ٢٥٠ هجريه وكان ذلك مبدأ شهرته وظهوره فلما تولى بابكيال أحد رؤساء الاتراك عاملا على مصر من قبل الخليفة المعتز بالله سنة ٢٥٤ هجريه لم يرغب هذا العامل فى أن يترك بغداد محل نفوذه ويذهب الى مصر فاستخلف عليها أحمد بن المدبر وأحمد بن طولون وقسم بينهما ادارة البلاد فاعطى أحمد بن المدبر جباية الاموال وأعطى أحمد بن طولون باقى الوظائف عسكريه وادارية وجعله نائبا عنه فحضر ابن المدبر الى مصر قبل مجىء ابن طولون اليها فاضطهد الاهالى كثيرا وثقل عليهم الضرائب وذلك أنه ابتدع فى مصر بدعا استمرت من بعده فقد أحاط بالنطرون وحجز عليه بعدما كان مباحا لجميع الناس وقرر على الكلأ الذى ترعاه البهائم مالا اسماه المراعى وقرر على مايطعمه الله من البحر مالا سماه المصائد فانقسم مال مصر الى خراجى وهلالى

أما الخراجى فهو مايؤخذ مسانهة من الاراضى التى تزرع حبوبا ونخلا وعنبا وفاكهة ومايؤخذ من الفلاحين هدية مثل الغنم والدجاج وغيره من جهة الريف وأما الهلالى فعلى نوعين سماهما بالمرافق والمعاون وهو مايؤخذ من الضرائب على مثل ما ابتدعه ابن المدبر كما تقدم فكره الاهالون هذه المعاملة وجعلوا يسعون الى المكيدية وكان عالما بذلك فجعل فى حاشيته الخاصة نحوا من مائة غلام هندى ممتازين بالقوة والشجاعة كانوا يرافقونه الى حيث توجه فلما قدم ابن طولون الى مصر ليستلم زمامها خرج لمقابلته ابن المدبر بحرسه وأهدى اليه هدايا قيمتها عشرة آلاف دينار فردها عليه ابن طولون وطلب منه عوضا عنها المائة غلام فلم يجد بدا ابن المدبر من أن يبعثها اليه فتحولت هيبة ابن المدبر الى ابن طولون حيث انتقلت السلطة اليه وصارت تزداد شوكته شيأ فشيأ بتطهيره مصر من عصاتها ثم استخلف أخاه موسى ابن طولون على مصر وخرج فى جيش

بامر الخليفة المعتمد على الله لمحاربة عيسى ابن الشيخ أمير الشام حيث كان استولى على أموال مرسلة الى الخليفة من مصر ولكنه وصله وهو فى الطريق كتاب من الخليفة يأمره بالعود الى مصر حيث أرسل عوضا عنه لمحاربة عيسى بن الشيخ أماجور التركى فلما عاد ابن طولون الى مصر عزم على الاستقلال بها فشرع فى تحصين البلاد وجمع الاموال وأكثر من العسكر وآلات الحرب فضاقت عليه العسكر محل اقامته فانتقل منها الى هضبة جبل يشكر الممتدة فى شرق الفسطاط لغاية أسفل الجبل المقطم فأسس فيها مدينة جديدة سماها القطائع لانه كان أقطع رؤساء جيشه أرضها فقسمها بينهم وكلفهم بان يبنوا فيها مساكن كل فى اقطاعه فشيدوا بها مساجد وحمامات وبساتين وبيوت وأسواق ومعامل ودكاكين وخانات وقد اتخذ بها احمد بن طولون ميدانا للجيش وأسس فيه قصره فسمى بالميدان فلما كانت سنة ٢٥٧ هجريه ولى المعتمد بن المتوكل على الله باركوج صهر أحمد بن طولون أباز وجته عاملا على مصر بعد موت باكيال فصار احمد بن طولون نائبا عنه ثم مات هذا العامل فى السنة الثانية فتحصل ابن طولون على أمر من الخليفة بتقليده ولاية مصر فلما انفرد بادارتها خفف على الاهالى الضرائب الباهظة التى كانوا يؤدونها فالغى الخراج الهلالى الذى وضعه ابن المدبر وأصلح مقياس النيل الذى بالروضة وأسس اسبتالية فى العسكر وكانت أول اسبتالية أسست فى مصر وأمر باصلاح منارة الاسكندرية وصهاريجها وأوصل مياه النيل اليها وشيد بالقطائع جامعه المسمى باسمه فأتم بناءه فى سنتين ولم يدخل فى بنائه شيأ يحترق أو تفسده الرطوبة فهو مبنى بالجبس والطوب الاحمر فقط ثم تملك على بلاد الشام مع مضادة الموفق أخى الخليفة له ثم توفى فى ذى القعده سنة ٢٧٠ ه ودفن بالجبل المقطم وترك شيأ كثيرا من الات الحرب ومن الخيل والعبيد وترك من الاولاد ثلاثين ولدا منهم سبعة عشر ذكورا وثلاث عشرة أناثا مع أنه لم يبلغ من العمر خمسين سنه ثم خلفه ابنه خمارويه وكان يلقب أبا الجيش فأخذ فى تدبير الاحكام ولم يغير شيأ مما كان على أيام أبيه بل أبقى الرتب والوظائف على حالها وأرسل مراكب حربيه تجول فى سواحل الشام ليتأكد من

تحصينها ثم التفت للامور الداخليه فزاد فى قصر أبيه وجعل الميدان كله بستانا زرع فيه أنواع الازهار والاشجار واتخذ فى هذا البستان برجا من خشب وضع فيه جميع أنواع الطيور المستحسنة الحسنة الصوت وغير ذلك وعمل ميدانا غيره أكبر منه واقتنى كثيرا من الخيول للسباق وكثيرا من الحيوانات المفترسة وغيرها كالسبع والنمر والفيل والزرافة وغير ذلك ثم لما تولى الخلافة المعتضد بالله أراد خمارويه تحسين العلائق بينه وبين هذا الخليفة ليزيل ما كان حصل بينهما من الخلاف أيام الخليفة السابق فارسل اليه هدايا كثيرة ووعده بان يدفع له سنويا مائتى ألف دينار خراجا خلاف المائة ألف دينار المتأخرة من السنين الماضية وعرض عليه ابنته قطر الندى زوجة لابنه ولى العهد فقبل منه الخليفة ذلك غير أنه اتخذ قطر الندى زوجة لنفسه فلما وقعت المصاهرة بينهما لم يدفع خمارويه شيأ من الخراج بعد الذى دفعه فى المرة الاولى ثم بعد موته خلفه ابنه جيش الملقب أبا العساكر فلم يلبث أن قامت عليه العساكر فقتلوه وأقاموا مكانه أخاه هارون فكثر فى أيامه الاختلال وعدم النظام وكادت أن تخرج عن طاعته جميع الولايات التابعة له فخضع للخليفة المعتضد ودفع له سنويا مليون دينار خراجا فلما مات المعتضد وخلفه ابنه المكتفى بالله أرسل محمد بن سليمان بجيش الى بلاد الشام فاستولى عليها ثم دخل مصر فأراد هارون مقاومته غير أن عمه أبا المغازى شيبان حرض عليه العساكر فقتلوه ثم أراد أن يجلس مكانه ويدافع عن مصر فلم يمكنه لان أمراء جيوشه كانوا قد تعاهدوا مع محمد قائد الخليفة وتركوه فالتزم بالهروب لكنه قتل فى هروبه فكان هو آخر من حكم مصر من الطولونيين فانتهت حينئذ العائلة الطولونيه ودخلت مصر ثانيا تحت حكم العباسيين فلم تزل تحت سلطتهم حتى استقل بها محمد الاخشيد وأسس فيها العائلة الاخشيديه

(الفرع الثانى فى الدولة الاخشيديه)

حكمت هذه الدولة أربعا وثلاثين سنه (٣٢٤ - ٣٥٨ ﻫ) وأمراؤها خمسة أولهم أبو بكر محمد بن طغج الملقب بالاخشيد الذى أرسله الراضى بالله الى مصر ليكون عاملا عليها

من قبله فاستقل بها وانفرد بتدبير أمورها لما رأى اضمحلال الخلافة العباسية واختلال أمورها وقد امتدت سلطته على الشام أيضا ومات فيها بمدينة دمشق ودفن باورشليم أى بيت المقدس ثم خلفه ابنه أبو القاسم أنوجور وكان حديث السن فكفله كافور وزير أبيه وأحد معاتيقه وكان عبدا أسود لكنه زكى ذو همة ونشاط نفع الاخشيد كثيرا ولم يكن له غاية الاعظم شأن امرائه وخير مصر فصارت الكلمة له واستتبت الراحة فى البلاد بحسن تدبيره وردعن مصر أعداءها وأخذ قلعة ابريم التى على بعد خمسين فرسخا من جنوب اصوان من ملك النوبه الذى كان أغار على اصوان ونهبها فى تلك الايام ولما مات أبو القاسم خلفه أخوه على الملقب أبا الحسن ولم تزل الكلمة لكافور ثم بعد موت على تولى كافور فاعترف بالتبعية للخليفة العباسى المطيع لله الذى هو آخر من تبعته مصر من العباسيين فأقره الخليفة على ولاية مصر ثم خلفه بعد موته أبو الفوارس أحمد بن على فنازعه فى الملك أحد أقاربه المدعو حسين فاضطربت أحوال الديار المصرية حيث انقسمت مصر الى جزئين ووقعت فيها المنافسات الشديدة والحروب الداخلية فكاتب أعيان مصر الخلفاء الفاطميين بالمغرب فى التملك عليها وكان اذ ذاك فى حوزتهم من بلادها الاسكندرية والفيوم وجزء عظيم من الصعيد فارسل اليها المعز جيشا لتتميم فتوحها تحت رئاسة جوهر الصقلى فقصد جوهر الفسطاط وأسر حسين وخلع أحمد أبا الفوارس وخطب باسم الخليفة الفاطمى فانتهت حينئذ العائلة الاخشيدية وقام بمصر دولة الفواطم

الباب الثاني

(في الدول التي حكمت مصر مستقلة وفيه ثلاثة فصول)

الفصل الاول

(وفيه مطلبان)

(المطلب الاول في الدولة الفاطمية)

قد نشأت هذه الدولة ببلاد المغرب حين اضطربت أحوال الدولة الاغلبية بها فان قوما من الشيعة منهم أبو عبد الله الشيعي تمكنوا من اشهار الدعوة لآل البيت بتلك البلاد بمساعدة الادارسة لهم وبايعوا رجلا يدعى عبيد الله من قبيلة كتامة القاطنة بجوار مدينة سلجماسه في الغرب الاقصى يدعى أنه المهدي وأنه ينتسب الى علي وفاطمة فنبغت هذه الدولة الفاطمية أو العلوية المسماة أيضا بالعبيدية بالقيروان سنة ٢٩٦ هـ بعد قلب دولة الاغالبه في أيام الخليفة العباسي المقتدر بالله وقد عزى عبيد الله لنفسه الاحقية في الخلافة فتلقب بأمير المؤمنين وعمل على محو امامة العباسيين فبعد أن وطد سلطته على صقلية وسردينيا المفتتحتان في أيام الدولة الاغلبية وضرب الجزية على أمير الادارسة بالغرب الاقصى وعلى العائلات المستقلة بمكناسة وسلجماسه وغيرهما وجه أنظاره الى مصر غير أنه لم يمكنه أن يتملك على أكثر من صحراء ليبيه و برقه وترك اتمام مشروعه الى خلفائه فاهتم القائم بامر الله ثم المنصور في أخذها من الاخشيديين فلم يمكنهما غير أنهما تملكا على بعض بلادها فلما خلفهما المعز لدين الله تمكن من فتوح مصر على يد قائده جوهر سنة ٣٥٨ هـ فكان هو أول الخلفاء الفاطميين بمصر ورابعهم بالمغرب وهم أربعة عشر استقر منهم بمصر أحد عشر من أول المعز حيث انتقل اليها بما ثاته وأما الثلاثة الاول فكان مركز حكومتهم بالمهدية التي أسسها عبيد الله المهدي بعد أن

تملك على القيروان على بعد خمسة وخمسين فرسخا من تونس وانتقل اليها وقد امتدت سلطة هذه الدولة بعد تملكها على مصر والشام على جزء من أرض الجزيرة ومن بلاد العرب وقد أحسن المعز لدين الله ثم ابنه العزيز بالله التصرف وأما الحاكم بأمر الله الذى خلفهما فكان من أسوأ الملوك قضى على رعيته فى مدة الاربع والعشرين سنة التى حكمها بأدنى الطاعة وأذل الخضوع فقد كان الكل يرتجف أمامه لوجود العبيد مسلحة حوله مستعدة لقتل كل من يقع منه ما لا يستحسنه وكان ردىء السيرة كل أفعاله محض اختلال فقد أمر مرة باحراق القاهرة ليتمتع بمشاهدة مدينة تحترق وأخرى سمح لعساكره بنهب المدينة وكثيرا ما كان يضطهد اليهود والنصارى حتى يخرجوا عن أديانهم ثم يسمح لهم بالعود اليها وقد أمر الناس بسب الصحابة ثم منع سبهم وعاقب من يسبهم أشد العقاب وهكذا كانت أفعاله تشهد عليه بالجنون والزندقة وله فى الاضاليل مذهب معروف وهو الذى بنى الجامع المسمى باسمه بالقرب من باب الفتوح وقد قتل بالجبل المقطم سنة ٤١١ هـ فخلفه ابنه الظاهر لاعزاز دين الله ثم المستنصر بالله بن الظاهر وله من العمر سبع سنوات فطالت مدته ومكثت نحو الستين سنة وهى مدة لم يحكمها خليفة غيره الا أن أيامه كانت أسوأ الايام وأشدها على الاهالى ضنكا وبؤسا فانها كانت كلها فتن وحروب داخلية وخارجية وقحط وغلاء وفيها انفصل عن مصر الشام وغيرها من الولايات التابعة لها وكانت أمه جارية سوداء باعها الى الخليفة الظاهر رجل يهودى يدعى أبا سعيد سهل فلما تولى الخلافة ابنها أدخلت بائعها فى الملك واتخذته مستشارا لها وصارت تعمل معه الدسائس على خلع الوزراء وتوليتهم فكثر تغييرهم فأهملت الاشغال وصار ينقص ايراد الحكومة يوما فيوما وتزداد مصاريفها وصارت جميع ولايات المملكة فى حالة يرثى لها من الفقر ونقص السكان ومما أوقع مصر فى الاضمحلال الكلى والفاقة الكبرى المشاجرات التى وقعت بين العساكر وخفراء القاهرة وكان ذلك الخفر مكونا من عساكر عبيد تحت حمى الملكة أم الخليفة ومن عساكر أتراك مكونين لمعظم الجيش وكان المستنصر فى كل سنة فى زمن الحج يظهر أنه يريد الحج فيخرج من القاهرة مصحوبا

بكثير من الرجال والنساء ومعه الابواق والنوبات ويذهب الى بركة الحج مجمع الحجاج فيفرق على عساكره نبيذا ويبيتون سكارى ثم يعود الى قصره ففي بعض السنين بينما هم في هذا الانهماك اذ ضرب أحد العسكر الاتراك السكارى واحدا من العبيد فقبض أصحاب العبد على التركى وقتلوه فانتشبت الحرب بين الاتراك والعبيد ووقعت بينهم حروب عديدة كانت نتيجتها أن أفنى الاتراك العبيد واستولوا على السلطة وصار الخليفة حقيقة هو رئيسهم ناصر الدولة وضيقوا على الخليفة فلا زالوا يطلبون منه زيادة ماهياتهم حتى نفدت جميع أمواله فنهبوا قصره حينئذ وأخذوا مافيه من أمتعة وحلى وكان الخليفة ووزيره يحضران هذا السلب باكيي العين ولم يجسر أحدهما أن يتكلم وقد خربوا الكتبخانة العظيمه فأعدموا منها مائة وعشرين ألف كتاب من الكتب النفيسة التى بخط اليد وأخذ العربان كثيرا من المجلدات الحسنة التجليد وصاروا يعملون من جلدها نعالا وانتزعت الشوكة من المستنصر كلية فلم يبق تحت طاعته عسكر واحد ولا فى تصرفه دينار واحد ولم يكتف ناصر الدولة بذلك بل أراد أن يخلعه من الخلافة أيضا غير أنه اختلف عليه بعض الاتراك وتحزبوا مع المستنصر فحاربه المستنصر بهم وهزمه فالتجأ الى الاسكندرية واستقل بالوجه البحرى وخطب فيه للعباسيين ثم وقع بمصر غلاء كثير ومجاعة عظيمة كانت شدتها سنة ٤٦٢ ﻫ فبيع الاردب القمح بمائة دينار والبيضة بدينار والقط بثلاثة دنانير والكلب بخمسة حتى تعذر على الاغنياء فضلا عن الفقراء الحصول على أقل المأكولات وصار أهالى القاهرة يأكل بعضهم بعضا وقد لحق القحط الخليفة كغيره فباع ما بقى عنده من الجواهر والحلى حتى ملابس حريمه بابخس الاثمان من شدة الجوع وقد صحب هذا القحط الطاعون كما هى العادة فكانت الاموات تعد بالالوف حتى خلت القاهرة من سكانها فان من بقى له مقدرة على المشى ترك المدينة وذهب الى الخلاء قاصدا جهة الشام أما ناصر الدولة فقد حجز غلال الوجه البحرى عن القاهرة ثم أتى لمحاصرتها بعد أن حرق كل ما فى طريقه فلم يقدر الخليفة على مقاومته فخضع له فلما دخل ناصر الدولة القاهرة

عزم على أن يلزم الخليفة بغرامة الحرب فاستقبله المستنصر فى قصر متخرب جالسا على حصير خشن وليس عليها لا قفطان قديم وما عنده من الخدم سوى ثلاثة عبيد عرايا قد بلغوا من العمر أرذله وقال له ماتريد منى أنت تعلم أنك لم تبق لى شيأ فان أردت ثيابى الرثه وحصيرى وعبيدى الثلاث فخذهم أيضا فخجل ناصر الدولة ورتب له مائة دينار شهريا بالمؤنته واستمر ناصر الدولة فى السلطة حتى قتله صهره الدقوز واستولى هو عليها فلما تعب المستنصر من الاتراك دعا بدر الجمالى أمير دمشق بالحضور الى مصر ليسلمه أمورها فحضر من الشام بمن انتخبهم من جنوده من طريق البحر الابيض المتوسط ولما وصل الى القاهرة صنع وليمة وعزم فيها رؤساء الاتراك وأجرى فيهم مذبحة عظيمة ثم أمر بقتل كل من كان تحزب معهم أوساعدهم فخلع عليه المستنصر خلع الوزارة ولقبه أمير الجيوش وقلده وزارة مصر الادارية والعسكرية فعدل فى الرعية وأصلح البلاد ورد اليها رونقها القديم فقد وجه أنظاره الى التجارة والزراعة فأعاد الفلاحين الى زراعتهم ورفع عنهم الضرائب مدة ثلاث سنين حتى ترجع للارض خصوبتها وشجع الصناع والتجار فعادوا الى المدينة بعد أن كانوا خرجوا منها وهو الذى شيد بالقاهرة باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح والسور المتصل بها ثم مات هو والمستنصر فى ذى الحجة سنة ٤٨٧ ﻫ فمن بعدهما ابتدأت الحروب الصليبية فكانت هى الشاغل الوحيد للخلفاء الفاطميين المستعلى بالله والآمر بالله والحافظ لدين الله والظافر بأمر الله والفائز بنصر الله والعاضد لدين الله ولوزرائهم الذين لاتزال السلطة فى مصر بأيديهم الى أن انقرضت الدولة سنة ٥٦٧ ﻫ فى أيام العاضد لدين الله آخر خلفائها فقامت بمصر حينئذ الدولة الايوبية بظهور صلاح الدين يوسف بن أيوب

(المطلب الثانى)

(فى استيلاء الفاطميين على مصر وتأسيس القاهرة والجامع الازهر)

قد كان استيلاء الفاطميين على مصر فى عهد المعز لدين الله معد أبى تميم رابع خلفائهم بالمغرب الذى تولى الخلافة بعد موت أبيه المنصور سنة ٣٤١ وذلك انه لما كتب له

أعيان مصر فى التملك عليها سير اليها جوهر الصقلى قائد الجيوش الفاطمية فانتهز جوهر فرصة الشقاق الذى كان بين الامراء الاخشيديين واستعد لفتوح باقى البلاد المصرية بالقوة والغلبة فقدم مصر فى شعبان سنة ٣٥٨ ولما وصل الجيزة عبر الجسر ونزل فى شمال الفسطاط بموضع القاهرة وأناخ هنالك بمن معه من الجند ففتح له أهالى الفسطاط أبوابها فتملك على المدينة فى شهر رمضان من تلك السنة وأقام الخطبة للمعز لدين الله فى الجامع العتيق جامع عمرو فى شهر شوال من السنة المذكورة فكان ذلك دلالة على تمام فتوح مصر فلما تم له فتوح مصر بلا ضرب ولا طعن واستقر بها وثبت قدمه فيها أغار على بلاد الشام وضمها الى ممالك المعز التى كانت تمتد بافريقا من مصر الى الاقيانوس الاطلانطيقى وبجزائر البحر الابيض المتوسط فاتسعت حينئذ دائرة ملك الدولة الفاطمية وعظمت شوكتها ولما استتبت الراحة والامن بارض مصر شرع أبو الحسن جوهر فى تشييد عاصمة جديدة لها ليفاخر بنى العباس ببنائهم بغداد فأخذ فى تخطيط القاهرة سنة ٣٥٩ هجرية فأدار على مناخه الذى نزل فيه بالعسكر سورا يبتدئ من حدود الفسطاط ويتجه الى الشمال متباعدا عن الشاطئ الشرقى للنيل ثم يتجه الى الجنوب لغاية أسفل الجبل المقطم حتى يعود الى حدود الفسطاط ثانيا فكان بداخله الجهات المسكونة قبلا القطائع والعسكر وطولون وبنى بالمدينة قصرين سكنهما الخلفاء الفاطميون وكان تمام بنائهما سنة ٣٦١ ﻫ فعزم المعز لدين الله على ترك ممالكه المغربية والانتقال الى بلاد مصر ليتمتع بفتوحاته فركب البحر فى أواخر شوال من هذه السنة ونزل على سردينيا أولا ثم على صقلية وكانتا من ضمن ممالكه وبعد أن مكث بضعة أشهر فى هاتين الجزيرتين ونظم أحكامهما ارتحل الى طرابلس الغرب ثم سافر الى الاسكندرية ومنها الى القاهرة فدخلها فى رمضان سنة ٣٦٢ ﻫ وسكنها بجميع أولاده وأهله وجعلها مركز حكومته واتخذ جوهرا وزيرا له فأسس الجامع الازهر وأسس فيه كتبخانة عظيمة وجعله مدرسة للعلم الشريف تدرس فيه جميع العلوم النقلية والعقلية حتى صار أشهر مدرسة فى الشرق وأبهج مكان يؤمه

الناس من سائر الاقطار الاسلامية لطلب العلم وصارت القاهرة مقر المعارف أما المعز لدين الله فلم يمكث زمنا طويلا فى عاصمة بلاده الجديدة فقد توفى بها فى ربيع الآخر سنة ٣٦٥ وعمره خمس وأربعون سنة ونصف بعد أن حكم ثلاثا وعشرين سنة ونصفا منها ثلاث تقريبا بمصر والباقى بالمغرب وقد كان المعز عالما فاضلا جوادا شجاعا حسن السيرة منصفا للرعية

الفصل الثانى

(وفيه مطلبان)

(المطلب الاول فى الدولة الايوبيه)

حكمت هذه الدولة احدى وثمانين سنه (٥٦٧ – ٦٤٨ هـ) وهى تسمى أيضا بالدولة الكرديه فان أمراءها أكراد وقد كانوا اقبل مجيئهم الى مصر من قواد الملك نور الدين ابن الاتابك عماد الدين زنكى بالشام فلما أخذت الدولة العلويه بمصر فى التلاشى فى أواخر أيامها وصار استبداد وزرائها على خلفائها هرب شاور وزير العاضد العلوى بها من ضرغام الذى نازعه فى الوزارة الى الشام ملتجئا الى نور الدين ومستجيرا به وطلب منه ارسال العساكر معه ليعود الى منصبه ويكون له ثلث دخل البلاد فجهز له نور الدين الجيوش وقدم عليها أسد الدين شيركوه وسيرها معه الى مصر فاعيد الى الوزارة فعاد عما كان وعد به نور الدين وغدر بأسد الدين واستنصر عليه بالفرنج فالتزم أسد الدين بالعود الى الشام ثم أعاده نور الدين الى مصر مع جماعة من الامراء منهم صلاح الدين يوسف بن أيوب لما اشتد الحال بالمصريين من مضايقة الفرنج لهم حيث أرسل اليه العاضد لدين الله يستغيث به من محاصرة الفرنج للقاهرة فلما قرب أسد الدين مصر رحل الفرنج الى بلادهم بالشام فوصل أسد الدين الى القاهرة واجتمع بالعاضد لدين الله فخلع عليه وفرح به أهل مصر وأخذ شاور يماطل أسد الدين فى تقرير ما كان بذل لنور الدين

فخاف العسكر شره فاتفق صلاح الدين مع بعض الجند على قتله فقبضوا عليه وقتلوه بموافقة العاضد لهم فدخل أسد الدين القاهرة وقلده العاضد وزارة مصر ولقب الملك المنصور أمير الجيوش فاقام بالوزارة شهرين تقريبا ثم توفى فى جمادى الآخر سنة ٥٦٤ فقام مكانه ابن أخيه صلاح الدين ولقب الملك الناصر فتمكن من الوزارة وضعف أمر العاضد فكتب اليه نور الدين يأمره بقطع الخطبة العاضدية واقامة الخطبة المستضيئية فامتنع فى أول الامر فالح عليه والزمه بذلك فلم يمكنه مخالفته فامر بالخطبة للمستضيء بامر الله الخليفة الثالث والثلاثين من الخلفاء العباسيين ببغداد وكان قد اتفق أن العاضد مرض فى هذا الوقت مرضا شديدا فانحاز الى قصره ولم يخرج منه ولم يعلم بما يصير فى الخارج فتوفى فى يوم عاشوراء سنة ٥٦٧ ولم يعلم بقطع الخطبة فاستولى صلاح الدين على بلاد مصر ثم ضم اليها بلاد الشام وأرض الجزيرة فلما مات اقتسم أولاده الستة عشر ممالكه فاخذ أكبر أولاده نور الدين على الملقب الملك الافضل الشام السفلى مع مدينة أورشليم والشواطئ البحريه وجعل تخت ملكه مدينة دمشق واستولى غياث الدين الغازى الملقب الملك الظاهر على الشام العليا واتخذ تخت ملكه مدينة حلب وصارت مصر من نصيب عماد الدين عثمان الملقب الملك العزيز وأما باقى أولاده فقد اكتفوا بما لديهم من الولايات الصغيرة واعترفوا بالتبعية للثلاثة المذكورين وقد استقل بجهة الكرك الملك العادل سيف الدين أبو بكر أخو صلاح الدين غير أنهم لم يلبثوا أن وقعت بينهم المنافسة فاتحد الملك العادل سيف الدين مع الملك العزيز سلطان مصر على خلع الملك الافضل من مملكة دمشق فحكم حينئذ الملك العزيز على مصر والشام وبعد موته خلفه عليهما ابنه الملك المنصور وعمره ثمان سنوات فكفله أولا عمه الملك الافضل غير أنه لم يلبث أن حضر الملك العادل وأخذ منه كفالة الملك المنصور ثم خلع هذا من الملك وتقلده هو فصار بيده تقريبا جميع الدولة الايوبيه ففى أثناء ذلك كان الفرنج قد قويت هممهم بعد أن هزمهم شر هزيمة صلاح الدين فهموا بالاغارة على بلاد الشام فالتزم الملك العادل بالخروج الى الشام لملاقاتهم فحصلت بينه وبينهم عدة

وقائع ثم عزم على العود الى مصر للمدافعة عن دمياط حيث كان الفرنج أتوا لمحاصرتها فتوفى هناك قبل وصوله الى مصر فخلفه ابنه شرف الدين الملقب الملك الكامل فاسترجع من الفرنج مدينة دمياط غير أنه ترك لهم بعض مدن الشام ثم استولى أيضا على حلب فصار بيده جميع الممالك الايوبيه وبعد موته خلفه ابنه سيف الدين أبو بكر الملقب بالملك العادل الثانى فلم يلبث أن خلعه الامراء وولوا مكانه أخاه الملك الصالح حاكم دمشق فلما صعد على كرسى المملكة اتخذ له حرسا من المماليك الاتراك لخوفه من هؤلاء الامراء الذين جردهم فيما بعد من وظائفهم فبغضوه بغضا عظيما حتى ان بعض أمراء الشام تآمروا مع الفرنج على محاربة مصر فسافر الملك الصالح الى الشام وتحالف مع بعض قبائل كانوا هاجروا من جهة خوارزم بسبب اغارة جنكزخان وسكنوا فى شمال بلاد الشام وهجم بهم على الفرنج وأمراء الشام المتحالفين معهم وأخذ منهم أورشليم ودمشق وجميع الحصون التى على الشاطئ ثم التزم بالعود الى مصر فان الفرنج كانوا قد نزلوا على دمياط تحت قيادة ملك فرنسا لويز التاسع فلما حضر الملك الصالح الى المنصوره كان الفرنج قد تملكوا على دمياط وأغاروا على المملكة فاغتاظ الملك الصالح ومات كمدا بعد مرض شديد فاتفقت سريته شجرة الدر مع الامير فخر الدين رئيس الجند ومع جمال الدين الخصى الاول بالقصر على اخفاء موته وحفظ المملكة لولده منها الملك المعظم توران شاه وأرسلت اليه بان يحضر سريعا من بلاد الشام ففى أثناء تلك المدة كان قد وقع بين المسلمين والفرنج واقعة عظيمة بجهة المنصورة انتصر فيها المسلمون بهمة المماليك بعد مقاومة شديدة ومات فيها الامير فخر الدين فلما حضر ابن الملك الصالح توران شاه هزم الفرنج بعد عدة وقائع شر هزيمة بجهة فارسكور فاسر منهم عشرين ألفا مع ملك فرنسا وأمرائه وخواصه فبعد هذا النصر العظيم أشهر موت الملك الصالح وتوليـة ابنه الملك المعظم غياث الدين توران شاه فلم يحكم سوى شهر تقريبا ثم قامت عليه المماليك فى آخر محرم سنة ٦٤٨ وقتلوه فمات فى عنفوان شبابه وبموته انتهت الدولة الايوبية الفاخرة وابتدأت دولة المماليك

(المطلب الثانى)
(فى ذكر الملك صلاح الدين وبناء قلعة الجبل)

هــذا الملك هو رأس الدولة الايوبيه استولى على بلاد مصر سـنة ٥٦٧ وهو عامل لنور الدين فلما مات نور الدين سنة ٥٦٩ وخلفه ابنه الملك الصالح وعمره احدى عشرة سـنة خرج صلاح الدين الى الشام مظهرا طاعة الملك الصالح وانه خرج لحفظ بلاده عليه من الفرنج واسـتعادة ما أخذه منه ابن عمه سـيف الدين غازى صاحب الموصل من البلاد الجزريه فاسـتولى على دمشق وحمص وحماه وبعلبك ثم تخلف عما كان يظهر ورحل الى حلب وحاصرها وبها الملك الصالح بن نور الدين فلم يتمكن من فتحها بل تركها بعد أن حصل الصلح بينهما وسار الى مصر فدخلها سنة ٥٧٢ وأمر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة التى على جبل المقطم

وكان صلاح الدين كلما تغيب فى فتوحاته يستعمل مكانه نائبه الامير بهاء الدين قراقوش الاسـدى وهو خصى أبيض كان يصـدر اليه صلاح الدين الاوامر فيجريها بكل همة ونشاط وهو الذى كلفه صـلاح الدين ببناء المدارس وتصليح الجسور وحفر الترع وبناء القناطر وتشييد العمائر فى القاهرة وكافة الاصـلاحات التى حدثت فى مصر ومن أعظم مآثر صلاح الدين القلعة التى توجد لغاية أيامنا هذه فى القاهرة فانه هو الذى أمر ببنائها وشـيد فيها دارا عظيمة جعلها محل اقامته وحفر البئر العميقة التى بها الى الآن المعروفة ببئر يوسف وهى يبلغ عمقها ٨٨ مترا ونصـفا وكان حفرها الاحتياج الحفر اليها وقد استعمل لتلك العمائر أحجار الآثارات القديمة فانه هدم الاهرام الصغيرة التى كانت بارض مصر وبنى باحجارها القلعة وسور القاهرة وبقية المبانى المذكـورة ثم سار صلاح الدين من مصر سنة ٥٧٨ هجريه بعد موت سيف الدين غازى والملك الصالح ابن نور الدين لما علم باتحاد أمراء الشام وأهل الموصل مع الفرنج ضده فأغار على بلاد الشام وأرض الجزيرة وتملك على عدة حصون بها ثم احتـل مدينة حلب وأقطعها أخاه الملك العادل ونهب مدنا كثيرة من بلاد الشام ثم رجع الى أرض الجزيرة

وحاصر الموصل فلم يتمكن منها بسبب مرضه واستقر الصلح بينه وبين صاحب الموصل بان يسلم له صاحب الموصل شهرزور وأعمالها وأن يخطب له ويضرب اسمه على الدراهم فالتفت صلاح الدين حينئذ الى محاربة الفرنج فانقلب الى بلاد الشام وهزم الفرنج وأخذ منهم صفوريه وطبريه وعكا وقيساريه وحيفا ويافا وصيدا وبيروت وعسقلان ثم عزم على فتح مدينة بيت المقدس فنزل عليها فى رجب سنة ٥٨٣ وضيق عليها الحصار فاستأمنه الفرنج الذين بها فامنهم بشرط أن يدفعوا فى مدة أربعين يوما عشرة دنانير عن كل رجل وخمسة عن كل امرأة ودينارين عن كل طفل ومن لم يؤد ذلك فى المدة المذكورة صار مملوكا وسلمت المدينة فى يوم الجمعه ٢٧ من الشهر المذكور فلما فتح القدس بعث الفرنج الى بلادهم بخبر بيت المقدس فقام ملك الفرنسيس وملك الانكليز وملك الالمان وساروا الى بلاد الشام ونزلوا على عكا وحاصروها ثم تملكوها بعد قتال شديد مع صلاح الدين ثم بعد عدة وقائع أخر أرسل الفرنج الى صلاح الدين فى أن يعقد معهم هدنة فعقد معهم الهدنة على أن يستقر بيد الفرنج يافا وقيساريه وأرسوف وحيفا وعكا مع أعمالها وأن تكون عسقلان خرابا وأذن للفرنج فى زيارة القدس ثم رجع صلاح الدين الى دمشق فمرض بها مرضا شديدا بقى به ثمانية أيام ثم مات بعد أن حكم أربعا وعشرين سنة وله من العمر سبع وخمسون سنة وترك من الاولاد ستة عشر ابنا وبنتا واحدة فتزوجت ابن عمها نصر الدين ابن سيف الدين الذى تلقب من وقتئذ بالملك الكامل وكانت وفاته يوم الجمعه ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ فحزن عليه جميع الشرق واجتمع بدمشق جميع الامراء المجاورين له لتشييع جنازته وقد كان حليما كريما حسن الاخلاق متواضعا صبورا ذا سياسة حسنة وهيبة عظيمة وعدل وافر وغزوات كثيرة اتفق على مدحه جميع المؤرخين من عرب وافرنج

الفصل الثالث

(فى دولة المماليك وفيه مطلبان)

أصل هؤلاء المماليك من سكان أقاليم بحر الخزر وجبال القوقاز فلما أغار المغول على تلك البقاع وأوقعوا القتل والاسر فى أهلها حتى شتتوا قبائلهم هرع اليهم تجار الرقيق من كافة انحاء الشرق وصاروا يجلبون هذه التجارة الى جميع أسواق آسيا الغربية وحيث كان هؤلاء المماليك من الشبان الشديدى البنية السليمى الصحة الجميلى الصورة انتهز فرصة ذلك جميع أمراء آسيا وصاروا ينظمونهم ضمن جنديتهم وبالجملة كون منهم سلاطين مصر طائفة من الجندية خاصة بهم وكانوا كثيرى العدد والعدد فاستولوا على جميع وظائف الحكومة ولم يتيسر ردعهم وادخالهم تحت نظام حتى آل الامر الى أن وقعت حكومة مصر باجمعها فى قبضتهم وقد انقسمت دولتهم فيها الى دولتين متميزتين بالنسبة لجنسية أمرائهما فان الاولى منهما كان أمراؤها من التركمان ولذا تسمى بدولة التركمان والثانية كان أمراؤها من الجركس ولذا تسمى بدولة الجراكسة وأما مجرى الحوادث وسير الامور السياسية فيهما فكان واحدا وهو المداومة على الهيجان والثورات فقد كانت أمراؤهما دائما فى أشد المعارضة لمن يتولى الملك منهم ولا يعرفون غير القوة التى كانوا يستعملونها فى خلعه عن الملك لاقامة غيره عليه وهكذا

(المطلب الاول)

(فى دولة المماليك التركمان)

تسمى هذه الدولة أيضا بدولة المماليك البحرية لان أمراءها كانوا يسكنون حصونا بالجزء الجنوبى من جزيرة الروضة بقرب المقياس وعلى طول الفرع الشرقى من النيل وقد حكمت ١٣٦ سنه (٦٤٨-٧٨٤ هـ) تسلطن فى أثنائها على مصر أحد وثلاثون أميرا من هؤلاء المماليك أولهم شجرة الدر زوجة الملك الصالح التى استولت على الملك بعد قتل ابنها الملك المعظم توران شاه آخر ملوك الدولة الايوبية نظرا لكثرة الاضطراب الذى

حصل فى مصر بسبب اختلاف الاحزاب على من يبايعون بعده وقد أشركت هذه الملكة عز الدين ايبك فى الحكم معها ولقبته بالاتابك أى نائب الملك وأحسنت السياسة فى مصر وأوجدت الراحة والامن فيها غير أنها لم تلبث أن خرجت عن طاعتها مدن الشام التى خضعت لملك حلب فالتزمت بالتنازل عن الملك لعز الدين ايبك وتزوجت به ولكنه لم يلبث هو أيضا أن قام عليه بعض المماليك وجبروه على أن يقتسم الملك مع أمير من الايوبيين عمره ثمان سنوات يدعى الملك الاشرف بن يوسف كانوا قد أحضروه من اليمن فاستمر فى ادارة البلاد باسم أتابك غير أنه كان بيده السلطة حقيقة ولم يكن الاشرف المذكور الا اسما بلا رسم وقد نهض فى خلال ذلك سلطان دمشق ناصر الدين يوسف أحد أعضاء العائلة الايوبية للاخذ بثار الملك المعظم توران شاه فوقعت الحرب بين ناصر الدين والملك المعز ايبك الا أنها انتهت بانتصار المصريين فوقع الصلح بينهما على أن يكون للمماليك مصر وغزة واورشليم ثم عزم ايبك على الاستقلال بالملك فاوقع بالحزب المعارض له حزب الملك الاشرف بعد أن قتل رئيسه الفارس اقطاى وقبض على الملك الاشرف وألقاه فى السجن حتى مات فلما استتب له المقام شرع فى التخلص من شجرة الدر أيضا فاقتنى عليها سرارى أخريات فولدت له احداهن ولدا سماه نور الدين ثم سعى أيضا فى التزوج بابنة بدر الدين لؤلؤ ملك الموصل فاغتاظت منه شجرة الدر وأمرت خمسة خصيان بيض أن يكمنوا له فى الدهليز السرى الموصل الى دار الحريم فخنقوه هناك بعمامته وأشاعت أنه مات مصروعا وقد خلفه ابنه نور الدين على الملقب الملك المنصور فقبض على قاتلة أبيه وعهد بها الى نساء بيته فاماتوها ضربا بالقباقيب على رأسها وطرحوا جثتها فى خندق القلعة فأكلت الكلاب نصفها ودفن النصف الباقى قرب مدفن السيدة نفيسه ولم يحكم نور الدين الامدة قصيرة ثم خلفه سيف الدين قطوز الملقب الملك المظفر وأصله من ذوى العائلات الملوكية فقد كان ابن مودود شاه ابن أخى ملك خراسان ووقع فى رق العبودية لما تشتت عائلته باغارة التتار وفى أيامه قصد التتار مصر بعد تخريبهم

بغداد وقتل المستعصم آخر الخلفاء العباسيين نخرج اليهم بجيوش المصريين وتلاقى بهم عند فلسطين فهزمهم وكسب منهم غنيمة عظيمة ثم قتل أثناء رجوعه الى مصر وتولى بعده قاتله ركن الدين بيبرس البندقدارى وتلقب أولا بالملك القاهر ثم بالملك الظاهر أبى الفتوح وكان أشهر ملوك هذه الدولة ومن أعظم ملوك مصر قوة وشوكة محبوبا عند الرعية فارسا مقداما نظم أمور مصر ووسع حدودها فقد انتصر على التتار مرارا وأجلاهم عن بلاد الشام وضمها الى مصر وكذا أرمينية فاتصلت فتوحاته شمالا الى بلاد الاناضول وافتتح جنوبا بلاد النوبة وجميع وادى النيل الاعلى وفى أيامه التجأ الى مصر من نجى من العباسيين من رق العبودية بعد سقوط دولتهم ببغداد وكان فى جملتهم ابن الظاهر بامر الله الخليفة الثانى قبل المستعصم فاكرمه بيبرس وترحب به وقلده الخلافة بمصر باسم المستنصر بالله فاستمر اسم الخلافة لبنى العباس وصار مقرهم بمصر وكانوا يلقبون بالائمة حتى تملك العثمانيون على مصر فاخذ ملكهم السلطان سليم هذا الاسم من الخليفة المتوكل على الله آخر العباسيين بمصر وانقرضت حينئذ الخلافة العباسية كلية ومن آثار بيبرس بمصر الجامع الكبير المسمى باسمه الذى بناه خارج باب الحسينية وقد توفى سنة ٦٧٦ هـ بعد أن حكم سبع عشرة سنة وترك مصر فى أعلى درجة من المجد والرفعة والثروة والشوكة وقد ترك من الاولاد ثلاثة خلفه على الملك اثنان منهم على التعاقب ثم تولى بعدهما سيف الدين قلاوون الالفى وتلقب بالملك المنصور وهو الذى بنى للفقراء الدار المعروفة بالبيمارستان التى أتمها وأصلحها ابنه الملك الناصر وفى أيامه أغار التتار على بلاد الشام فخرج اليهم بعسكر المصريين وهزمهم ثم تغلب على مدينة طرابلس الشام وأخذها من الفرنج بعد مقاومة شديدة فهدمها وذبح أهلها وقد خلفه بعد موته ابنه صلاح الدين خليل ولقب بالملك الاشرف فخرج فى السنة الثانية من حكمه سنة ٦٩٠ هـ الى بلاد الشام وحاصر الفرنج بعكه وكانت آخر مدينة يمتلكونها فى الشرق فتملك عليها وهدم أسوارها ولما رجع الى مصر لم يلبث أن خرج منها ثانيا

وأغار على بلاد ارمينية فخرب بلادها وتملك على مدينة ارضروم وكانت حصينة منيعة فلما عاد بعد ذلك الى مصر تواطأت احدى جواريه مع مملوك له يدعى بيدارا وقتلاه بعد أن حكم ثلاث سنين واليه ينسب الخان المشهور بالخان الخليلي فى السكة الجديدة فى القاهرة وكان بهذا المكان قبل ذلك مدافن الخلفاء الفاطميين فبنى الخان على انقاضها ولما مات الملك الخليل خلفه قاتله بيدارا لكنه لم يحكم سوى يوم واحد ثم قتل فتولى محمد بن قلاوون ولقب بالملك الناصر وكان عمره تسع سنوات فجعل زين الدين كتبغا وصيا على الملك فلم يلبث أن خلع الملك الناصر ونفاه الى الكرك وتولى هو الملك وتلقب بالملك العادل ثم خلع فخلفه حسام الدين لاجين ثم سيف الدين طقجى ولم يحكم هذا سوى يوم واحد ثم قتل فأعيد الى الملك الناصر بن قلاوون وكان عمره اذ ذاك خمس عشرة سنة تقريبا فخرج بعد عوده الى الملك بمدة يسيرة الى بلاد الشام لمحاربة التتار فانهزم جيشه أولا لكنه جمعه ثانيا وأمده بالعدد والرجال ورجع الى التتار فهزمهم شر هزيمة وعاد منصورا الى القاهرة ثم خاف على نفسه لما علم بمؤامرة أمراء المماليك ضده فخرج من مصر مع كثير ممن يعتمد عليهم مظهرا أنه يريد الحج وتوجه الى الكرك وتحصن فيه وأرسل لامراء المماليك بانه تنازل عن ملك مصر فولوا ركن الدين بيبرس الجاشنكير الملقب بالملك المظفر فلم يلبث أن حضر الملك الناصر الى مصر ثانيا وتملك عليها الى أن مات سنة ٧٤١ وقد أصلح مصر وبنى بها كثيرا من المدارس وتمم البيمارستان الذى كان ابتدأ أبوه بناءه ووسعه وأوقف عليه أوقافا كثيرة وقد ترك ثمانية أولاد ذكور تناوبوا الملك بعده الواحد بعد الآخر الا أن مدتهم جميعا كانت قصيرة جدا خالية من الرونق والبهاء فكان الواحد منهم يجلس على كرسى المملكة ثم يخلع فى وقت قريب وكان منهم الملك الناصر ناصر الدين حسن صاحب الجامع المعروف بجامع السلطان حسن الذى بالرميله بقرب القلعة ولم يزل ملك مصر فى عائلة السلطان قلاوون الى آخر أيام هذه الدولة فان الاربعة ملوك الذين خلفوا أولاده الثمانية على سرير الملك كانوا أيضا من ذريته فلما تولى الملك

الصالح حاجى وهو آخر الاربعة وكان عمره ست سنوات لم يلبث وصيه على الملك الامير برقوق أن خلعه ونفاه وتولى هو على السلطة الملوكية فكان أول سلاطين دولة المماليك الثانية وهى دولة الجراكسه

(المطلب الثانى)

(فى دولة المماليك الجراكسـه)

تسمى هذه الدولة أيضا بدولة المماليك البرجية لان أمراءها كانوا على الاخص مكلفين بحفظ الابراج أى القلاع فى عهد المماليك البحرية وقد حكمت ١٣٩ سنه (٧٨٤ – ٩٢٣ هـ) تسلطن فى أثنائها على مصر خمسة وعشرون أميرا من هؤلاء المماليك أولهم السلطان برقوق وأصله مملوك الامير يلبغا أحد المماليك البحرية كان قد اشتراه سنة ٧٦٢ فاعتنى بتربيته حتى رفعه الى رتبة أمير ولم يزل حتى صار وصيا على الملك فى عهد الملكين الاخيرين من المماليك البحرية حيث كان والدهما الملك الاشرف كافه بتربيتهما فلما كانت أيام الملك الثانى منهما وهو الملك الصالح حاجى آخر سلاطين المماليك البحرية عزم برقوق على الاستقلال بالملك فخلع هذا الملك ونفاه واستقل بالملك فصار سلطانا وتلقب بالملك الظاهر وفى أيامه كان ظهور تيمورلنك فخاف برقوق على ممالكه منه وخرج بجيوشه الى بلاد الشام للمحاماة عنها فلم يقدر تيمورلنك على الاغارة عليها فبينما كان برقوق متغيبا فى بلاد الشام قام عليه الخليفة المتوكل على الله واتفق مع بعض الامراء على خلعه من الملك ونفيه الى الكرك فرجع حينئذ الى سلطنة مصر حاجى بن شعبان آخر سلاطين دولة المماليك البحرية غير أن الامراء لم يلبثوا أن أسفوا على خلع برقوق فأعادوه الى السلطنة بعد ثمانية أشهر وخلعوا حاجى ابن شعبان ثانيا فلما عاد برقوق الى السلطنة حافظ على السلام بقية مدته واشتغل بالتجهيزات الحربية خوفا على بلاده من التتار والعثمانيين وكان حكمه مع العدل والحكمة حتى انه عند موته أسف عليه جميع الاهالى وقد خلفه ابنه فرج زين الدين ولقب بالملك الناصر فاذعن بالطاعة لتيمورلنك خوفا منه حيث كان هذا

الفاتح التتارى أغار فى أيامه على بلاد الشام فقام عليه المصريون وخلعوه وولوا مكانه أخاه عبد العزيز غير أنهم لم يلبثوا أن أعادوه الى السلطنة فتملك على دمشق وغيرها من بلاد الشام ثم قام عليه أحد أمراء المماليك المدعو أبا النصر وقد كان يلقب شيخ المحمودى فتحزب مع الخليفة المستعين بالله وحارباه فهزماه فقبض عليه وحكم عليه بالقتل وبعد موته صار الخليفة المستعين بالله اماما دينيا وسلطانا سياسيا أى بيده أزمة السلطة الدينية والسياسية فتلقب بالملك العادل وقلد شيخ المحمودى الوزارة وأخذ فى اصلاح حال البلاد وترتيب ادارتها بغيرة ونشاط وخفف الاموال على الاهالى غير أن شيخ المحمودى أخذ فى دس الدسائس حتى جرد المستعين بالله من السلطة تقريبا وجبره على أن يشركه معه فى السلطنة باسم الملك المؤيد فاجتهد المستعين بالله فى خلعه بعد ذلك فلم يتمكن بل جاء الامر بالعكس فان شيخ المحمودى تمكن من خلع الخليفة وانفرد بادارة البلاد فاصلح حال الرعية وكان خيرا عاقلا من أحسن الملوك محبا للعلماء وهو الذى بنى جامع المؤيد بقرب باب زويله وبعد موته خلفه ثلاثة ملوك على التعاقب فى مدة سنه ثم تولى الملك الاشرف سيف الدين برسباى وهو أعظم ملوك هذه الدولة وأجدرهم بالملك فانه كان أرفعهم همة وأشدهم عزيمة وأكثرهم تدربا فى الاحكام وأصله معتوق الملك الظاهر ططر الملك الثانى قبله فلم يزل هذا الملك يرقيه حتى رفعه الى رتبة أمير ثم صار وصيا على الملك فى عهد ابنه فلما خلع هذا من الملك خلفه برسباى فأحسن السياسة واستعمل الحزم فاستتبت الراحة وظهر الامن فى البلاد وقد انتصر برسباى على الفرنج مرارا وتملك على جزيرة قبرص وضرب الجزية على ملك بيت المقدس ومن مآثره بناء جامع الاشرفية بالقاهرة وبعد موته خلفه ثمانية ملوك لايرى فيهم من يستحق الذكر الا الملك الظاهر خوش قدم فانه كان من أعقل ملوك هذه الدولة وأعظمهم حكما استتبت الراحة وظهر الامن فى مصر فى أيامه ثم تولى الملك الاشرف قايتباى وكان من أشهر ملوك هذه الدوله فاستتبت الراحة فى مصر وتوطد فيها الامن مدة الست سنين الاول من حكمه ثم وقعت الحروب بينه وبين بايزيد الثانى

ملك العثمانيين فكان النصر فى الغالب لجيوشه فاغتاظ بايزيد وألف جيشا جرارا تحت قيادة على باشا ففزع قايتباى وطلب الصلح من بايزيد فلم يقبله وعادت الحروب بالقرب من مدينة طرسوس وكانت الجيوش المصريه تحت قيادة الامير الازبكى فانهزم على باشا شر هزيمة فانتهز قايتباى حينئذ فرصة نصره وتخابر مع بايزيد فى أمر الصلح فرفض ذلك بايزيد أولا ثم قبله بشرط أن يخلى المصريون عن طرسوس وأدنه اللتين تملكوا عليهما من المدن العثمانية والا دعا جميع أهالى الدوله العثمانية الى حمل السلاح فى الواقعة الآتية فقبل قايتباى هذا الصلح مراعاة للسلام سنة ٨٩٦ ثم خلفه بعد موته خمسة ملوك على التعاقب وكانوا جميعا فى غاية العجز عن القيام بالملك فكان الواحد منهم يحكم بعض أشهر ثم يخلع أو يقتل وبعد ذلك اجتمع أعيان مصر مع أمراء المماليك لينتخبوا سلطانا لهم فانتخبوا الامير قنسو الغورى ولقب بالملك الاشرف وهو من مماليك السلطان قايتباى وكان أقلهم مالا وأضعفهم حالا لم يتداخل قط فى أمور المملكة فامتنع عن السلطنة أولا ثم قبلها بشرط أنهم اذا أرادوا خلعه يوما فلا يقتل وقد اجتهد فى ايجاد الراحة والامن فى جميع انحاء مصر وفى تحسين ادارة البلاد وشيد بالقاهرة جامعه المشهور باسمه الآن فلما كانت سنة ٩١٨ هـ التجأ الى مصر كركود أخو السلطان سليم بن بايزيد بعد أن نازع أخاه فى السلطنة العثمانيه فاجاره قنسو الغورى فغضب السلطان سليم واستعد لمحاربة مصر وكان وقتئذ فى حرب أيضا مع العجم فاراد قنسو مقاومته وتحالف مع اسماعيل شاه ملك العجم غير أن ذلك لم يجد نفعا بل شتت السلطان سليم جيش المصريين والعجم ثم أوغل بجيوشه فى بلاد الشام فتقابل بجيوش قنسو عند مرج دابق بقرب حلب فهزمهم ومات قنسو فى هزيمته فى رجب سنة ٩٢٢ بعد أن حكم خمس عشرة سنة وعشرة أشهر فخلفه على ملك مصر ابن أخيه الملك الاشرف طومان باى فلم يلبث أن حضر السلطان سليم الى مصر وقبض عليه وأمر بشنقه على باب زويله فى ١٩ ربيع الاول سنة ٩٢٣ هـ فانتهت حينئذ دولة الجراكسة وصارت مصر من وقتئذ جزأ من الدولة العثمانيه

الباب الثالث

(فى الكلام على الدوله العثمانية ومصر مدة حكمها وفيه فصلان)

الفصل الاول

(وفيه مطلبان)

(المطلب الاول فى ذكر الدوله العثمانية)

أصل هذه الدوله قبيلة من التركستان هاجرت من جهة خراسان تحت رئاسة سليمان شاه ابن قايا ألب أيام اغارة جنكزخان وكان عددها ٥٠,٠٠٠ نفس فاتت هذه القبيله الى بلاد أرمينيه واستوطنت هنالك على شواطئ الفرات سنة ٦٢١ هـ ثم بعد مضى بضع سنين اشتاق هؤلاء القوم الى رؤية أوطانهم فازمعوا على الرجوع اليها غير أنهم بينما كانوا يعبرون نهر الفرات غرق فيه أميرهم سليمان شاه سنة ٦٢٩ هـ ولا يزال قبره الى الآن هنالك فافترق القوم حينئذ الى فريقين رجع أحدهما الى خراسان تحت رئاسة ولدى سليمان شاه الكبيرين وأقام الفريق الآخر بوادى أراكس الاعلى وبسهل ارضروم تحت رئاسة ولديه الآخرين دوندار وارطغرل وكان عدد هذا الفريق أربعمائة عائلة فبعد أن أقام ارطغرل زمنا قليلا بتلك الجهة عزم على المسير بقومه الى جهة الغرب ليبحث على أرض أخصب من الارض المقيم فيها فبينما هو سائر واذا به قد صادف جيشين فى حومة الميدان وكان هذان الجيشان هما جيش التتار والمغول وجيش علاء الدين السلجوقى ملك قونيه فانضم ارطغرل بقومه الى أقل الجيشين عددا ونصره على عدوه فاذا بالجيش المنتصر هو جيش علاء الدين السلجوقى فاقطع علاء الدين أرطغرل الاراضى الواقعة على نهر صنجار يوس وأراضى قريجه ضاغ بشرق جبل اولمبه بالقرب من مدينة أنقوره فى الشمال الشرقى من قسم فريجية وذلك فى سنة ٦٦٣ هـ

ثم زاد علاء الدين فى اقطاعات ارطغرل نظرا لكونه خدمه ونصره مرارا على اليونانيين فكانت تلك الاراضى منبع الدولة العثمانية وبعد أن طرد ارطغرل التتار من ممالك علاء الدين وتوج نصره بفتوح كوتاهية وأخذها من اليونانيين تنازل سنة ٦٨٧ هـ لكبر سنه عن رئاسة العساكر لولده عثمان المولود سنة ٦٥٧ هـ فاستمر عثمان على محاربة اليونان حيث كانوا لم يزالوا يتملكون بآسيا بعض الحصون فاخذ منهم قره حصار وكانت حصنا منيعا فاعطاه علاء الدين مكافأة له على أعماله جميع الاراضى التى افتتحها مع لقب بيك وخلع عليه وسمح له بان يضرب الدراهم باسمه وأن يخطب له على المنابر ثم لما حصلت اغارة المغول وهرب علاء الدين الثالث آخر ملوك دولة آل سلجوق ملتجئا الى قيصر الروم تجزأت مملكته من بعده فاستقل حكام الاقاليم فيها كل بقسمه وكان فى قبضة عثمان اذ ذاك معظم اقليم بطينيه وجزء من اقليمى غلاثية وفريجية وجزء من وادى صنجاريوس الاعلى فتلقب بادشاه عالى عثمانى أى سلطان العثمانيين سنة ٦٩٩ هـ واتخذ مركز حكومته بمدينة ينى شهر ثم اخضع باقى اقليم بطينيه وتقدم لغاية شواطئ بحر مرمره وبعد أن انقطع عن الفتوحات بضع سنين لينظم أمور مملكته عاد اليها ثانيا فجعل ابنه أورخان على رئاسة العساكر ووجهه لحصار مدينة بروسه فتملك عليها بدون أدنى مقاومة سنة ٧٢٦ هـ ونقل اليها تخت المملكة من وقتئذ أما السلطان عثمان فقد حضرته الوفاة وقت فتوحها فخلفه أورخان ابنه الثانى لاشتغال ولده الاكبر علاء الدين بالعلوم وعدم اهتمامه بامر الملك فاتخذ اورخان علاء الدين المذكور وزيرا له فكان أول من تلقب بلقب باشا وأول مشرع فى الدولة العثمانية اذ بمساعدته نظم اورخان أمور المملكة الادارية والعسكرية حتى صار يعد المؤسس للدولة العثمانية حقيقة فهو أول من ضرب النقود باسمه فى هذه الدولة وأول من أسس الجيوش فيها من ينكشارية وغيرهم وبينما كان علاء الدين يرتب أمور المملكة كان السلطان أورخان يوسع حدودها بالفتوحات فتمم طرد اليونانيين من شواطئ نهر صنجاريوس وبحر مرمره وتملك على مدينتى نيكوميديه ونيسيه وغيرهما من الحصون وبنى بنيسية المدارس

وتكية للفقراء ثم تملك على اقليم برغامة وغيره حتى وصل الى بحر الارخبيل وبعد ذلك مكث نحو العشرين سنة مشتغلا بتنظيم المملكة وبناء المدارس وتنشيط العلوم والعلماء حتى صارت مدينة بروسه تخت المملكة مقرا للعلوم والمعارف وفى ذلك الوقت كانت مملكة الروم المسماة بالدولة السفلى فى غاية الانحطاط قد عظم فيها الشقاق وكثرت الفتن والثورات فارسل ملكها قيصر القسطنطينية الى السلطان اورخان ليستعين به على الصربيين ويعرض عليه ابنته للزواج فكان ذلك سببا فى ازدياد طمع العثمانيين فى فتوح ممالك هذه الدوله حيث ان دخولهم أوربا سمح لهم بمشاهدة اضمحلالها والوقوف على خفاياها فلما كانت سنة ٧٥٨ ﻫ عبروا بوغاز الدردنيل ليلا وتملكوا على مدينتى تزيبه وجاليبولى وغيرهما ثم لما خلف السلطان مراد الاول أباه السلطان أورخان على سرير الملك زاد فى الفتوحات باوروبا وآسيا فتملك على أدرنه سنة ٧٦٢ ﻫ ونقل تخت المملكة اليها ووقعت جميع بلاد طراسه التى سميت بالروم ايلى فى قبضته ودخل الترك فى أيامه بلاد الصرب وتملكوا على كثير من مدنها وبلاد البلغار وأخذوا فيها صوفيه وأما فى آسيا فقد امتدت حدود الدوله العثمانية فى أيامه الى بلاد أرمينية ولما خلفه ابنه السلطان بايزيد الاول تمم فتوح بلاد الصرب والبلغار ثم وجه أنظاره للتملك على الدولة السفلى فدمر تساليا وعبر الترموبيل وخرب فوسيده وبيلوبونيزه وهى بجيش جزيرة موره غير أن ذلك كان وقت ظهور تيمورلنك الفاتح التتارى الذى أرعب جميع بلاد آسيا فدهم هذا الفاتح السلطان بايزيد بجيوشه وهزمه فى واقعة انقوره بآسيا الصغرى وأخذه أسيرا وتملك على جميع آسيا الصغرى لغاية ازمير فكانت هذه الوقعة مصيبة على الدولة العثمانية أوشكت أن تقضى عليها بالاضمحلال فقد قامت فيها بعد موت السلطان بايزيد الحروب الداخلية نحو العشر سنين بسبب تنازع أولاده الثلاثة سليمان وموسى ومحمد الملك حتى كادت أن تسقط المملكة لولا أن محمدا أمكنه أن يتغلب على أخويه ويوطد سلطته على جميع ولايات المملكة فلما خلف هذا ابنه السلطان مراد الثانى استرجع سالونيك من البنادقة أهل مدينة البندقية وحاصر مدينة بلغراد

ولكنه لم يتمكن من فتحها وعقد هدنة لمدة عشر سنين مع الهنكاريين غير أنهم لم يحافظوا عليها بل عادوا الى الحرب عندما وجدوه تنازل عن الملك لابنه محمد البالغ من العمر أربع عشرة سنة واعتكف فى مينيزيه فرجع الى الملك وهزمهم شر هزيمة عند مدينة ورنه ثم تنازل عن الملك ثانيا لولده المذكور ولكنه التزم بالعود اليه ثالثا لتوطيد النظام لما ثار على ولده الينكشاريه فابتدأ حينئذ عصر جديد فى الفتوحات فقد استولى على قورنته و بتراسه وخرب بيلو بونيزه ولكنه لم يتمكن منها فلما خلفه بعد موته ابنه السلطان محمد الثانى الملقب بالفاتح فتح مدينة القسطنطينية سنة ٨٥٧ ﻫ ونقل اليها كرسى المملكة وبنى حصون الدردنيل وهدم اسوار غلاته من جهة البر وأقام أسوار القسطنطينية ونقل اليها من آسيا خمسين عائلة من المسلمين ثم صار ينقل اليها الصناع من المدن التى تملك عليها من أطراف المملكة وتملك على أثينه وقورنته وبجيشجزيرة موره فى أوروبا وعلى مملكة طرابزون وامارة كرمانيا فى آسيا ثم حاصر بلغراد فامتنعت عنه ولما منعه أيضا عن التقدم شمالا الهنكاريون لمدافعتهم عن حدودهم وأهل رومانيا لكثرة حصونهم بالكربات انقلب الى الجنوب وأغار على البانيا فتملك عليها ثم استولى على جزيرة نجربون من البنادقه وعلى بجيشجزيرة القرم ووغلت جيوشه فى ايطاليا ودفعت له مدينة البندقيه جزية سنوية فى مقابلة حرية تجارتها فى البحر الاسود وتملك على مدينة أوترنته على حدود مملكة نابلى الا أنها أخذت منه ثانيا وأغار على جزيرة رودس ولم يتمكن من فتحها ثم خلفه ابنه السلطان بايزيد الثانى ولم يفتتح الا بعض مدن فى بلاد اليونان استخلصها من البنادقة ووجه أنظاره لحرب المماليك بمصر فخزل فى حربه معهم أيضا فلما خلفه ابنه السلطان سليم شمر عن ساعد الجد فى أمر الفتوحات فلم ينقطع عن الحرب مدة السنين الثمانية التى حكمها فأغار أولا على بلاد العجم وتملك على ديار بكر وأرض الموصل ثم قصد دولة المماليك فدمرها وتملك على بلاد الشام ومصر ودخل فى حوزته حينئذ مكة والمدينة وتنازل له الخليفة المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين عن الامامة فصار أمير المؤمنين والخليفة

على الدولة الاسلامية ثم تملك على ايالة الجزائر أيضا فعظمت شوكة هذه الدولة حيث صارت قابضة على معظم شطوط البحر الابيض المتوسط مالئة له بسفنها الحربية ولم يوجد فى أوروبا جيش مثل جيشها المكون من الينكشاريه

ثم لما خلف السلطان سليم ابنه السلطان سليمان بلغت الدولة العثمانية فى أيامه أقصى درجات المجد والرفعة ووصلت الى غاية عظمها ومنتهى شوكتها فقد كان السلطان سليمان ذا عقل وسياسة وبأس وسطوة حضر ثلاث عشرة واقعة بنفسه فأخذ بلغراد من الهنكاريين وتملك على جزيرة رودس ثم أخضع هنكاريا أيضا وأخذ ملدافيا من أوستريا وأغار على بلاد العجم فدخل بغداد وتملك على أرض الجزيرة وضم الى ممالكه تونس وطرابلس بافريقا وعدن ببلاد العرب وبالجملة فقد كان هذا السلطان رجلا فاضلا يحب العلم ويعظم العلماء وكان رجلا شاعرا منشطا للعلوم والآداب حتى صارت زاهرة زاهية فى أيامه وقد سمى بالقانونى لكونه نظم أمور المملكة وأسس قوانينها وكان أعظم الملوك العثمانيين وبه انتهى عصر الشجاعة فى الدولة العثمانية فان من بعد ما اعتكف الملوك العثمانيون فى سراياتهم وتركوا مشاهدة الوقائع الحربية لامراء جيوشهم فكان هذا مبدأ انحطاطهم وان كانت الدولة حافظت مدة قليلة بعد ذلك على ما حصلت عليه من الفتوحات والرونق والبهاء بل وزادت أيضا فى فتوحاتها الا أن هذا لم يكن الا بهمة بعض وزراء كانوا من عظماء الرجال رزق الله بهم بعض الملوك الذين خلفوا السلطان سليمان على هذه الدولة فحافظوا على عدم انحطاطها فى أيامهم ففى أيام السلطان سليم الثانى الذى خلف السلطان سليمان على سرير الملك حافظت الدولة على فتوحاتها ودفعت لها أوستريا جزية سنوية واعترفت لها بالسيادة على ملدافيه وولاكيه وترنسيلفانيه وتملك العثمانيون على بلاد اليمن وافتتحوا قبرص من البنادقه وفى عهد خلفه السلطان مراد الثالث أخذ العثمانيون من العجم طوريس واذربيجان وشروان وجيورجيا الا أنه من هذا الحين ابتدأ قيام الينكشارية فأخذت الدولة فى الاضمحلال بسرعة وظهر فيها زمن الفوضوية لتواصل هيجان الينكشارية

وخلعهم للسلاطين وقتلهم لهم ولكبراء رجال الدولة فأخذ انحطاط المملكة فى الازدياد وان كان توقف برهة فى عهد السلطان ابراهيم بهمة وزيره الهمام قاره مصطفى الذى ابتدأ فتوح كريد وكذا فى عهد السلطان محمد الرابع بهمة وزيريه الهمامين قبرولى محمد وابنه قبرولى احمد حيث تم فتوح كريد وفتحت أوكرينى وبودوليه ودفعت بولونيه الجزية للترك وتوطدت سيادة الدولة على ملدافيه وولاكيه وترنسيلفانيه ولكن من هذا الوقت وقفت الدولة العثمانية عن الفتوحات بالكلية ولم تكن حروبها الا للمحافظة على حدودها فقط فقد صارت حدودها الشمالية باوروبا باعثا للنزاع بينها وبين جيرانها من الممالك الاوروباوية فكانت تتركها تارة لهم وتارة تستردها منهم حتى أضعفت قواها تلك الحروب وذهبت بثروتها فخرج من يدها معظم تلك البلاد ووصلت الى ماهى عليه الآن

وقد كان مبدأ هذا التجزئ فى عهد السلطان مصطفى الثانى لما انهزمت الترك على شاطئ نهر تسرا فى واقعة زنطا حيث التزم السلطان مصطفى بعقد معاهدة كارلووتز سنة ١١١٠ ه بينه وبين أوستريا وبولونيه والروسيه وجمهورية البنادقه واشترط فيها أن تتنازل الترك عن هنكاريا وترنسيلفانيه لاوستريا وعن بودوليه وأوكرين لبولونيه وان تحفظ الروسيه البلاد التى تملكت عليها بشواطئ بحر ازوف وأن تأخذ جمهورية البندقيه جزيرة موره ومعظم دلماتيه وان تحذف جميع الجزيات التى كانت تدفعها الامارات النصرانية فكان هذا مبدأ عظم انحطاط الدولة وان كانت شمرت عن ساعد الجد فى بعض حروبها بعد ذلك واستردت بعض تلك الجهات الا أنه لم تأخذ مما لكها من وقتئذ الا فى التناقص ففى سنة ١١٨٩ ه وقع السلطان عبد الحميد على معاهدة كاينارجى التى اعترفت فيها الترك باستقلال القرم التى استولت عليها الروسيه فيما بعد وتركت الدولة بناء على هذه المعاهدة للروسيه حصون بحر ازوف والتتاريه الصغرى وسمحت لها بحرية الملاحة فى البحر الاسود وبحر مرمره وقبلت بتجزئة بولونيا ثم فى أيام السلطان محمود الثانى الذى محا جيش الينكشاريه سنة ١٢٤١ ه

استولت الروسيه على بسارابيه وشواطئ نهر بروطه بناء على معاهدة بخارست سنة ١٢٢٦ ﻫ واستقلت اليونان بعد حرب شديدة انتهت بمعاهدة ادرنه سنة ١٢٤٤ ﻫ التى بناء عليها أيضا تملكت الروسيه على دلتا الدانوب وصار ملدافيه وولاكيه يكونان لامارة خراجيه تحت حماية الروسيه ثم تملك الفرنساويون فى عهده أيضا على بلاد الجزائر سنة ١٢٤٥ ﻫ وصارت مصر امارة وراثيه فى عائلة محمد على باشا سنة ١٢٥٧ ﻫ فلما كانت أيام السلطان عبد المجيد عقدت معاهدة باريس سنة ١٢٧٢ ﻫ بعد حرب القرم بين فرانسا وانكلتره والروسيه وأوستريا وبروسيا وسردينيا والدولة وبناء عليها صار محوا الحماية التى كانت للروسيه على امارة ملدافيه وولاكيه وصارت هذه الامارة تحت رعاية الدول العظمى ثم لما حصلت الحرب بين الدولة والروسية سنة ١٢٩٥ ﻫ فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى وانتهت تلك الحرب بمعاهدة صان ستفانو التى صار تعديلها فى مؤتمر برلين فى السنة المذكورة استقل بناء على هذه المعاهدة مملكة رومانيا ومملكة الصرب وامارة الجبل الاسود وصارت بلغاريا امارة خراجيه

(المطلب الثانى)

(فى ذكر السلطان سليم وفتوح العثمانيين لمصر)

هذا الملك هو التاسع من سلاطين الدولة العثمانيه صعد على كرسى المملكة سنة ٩١٨ ﻫ وحكم ثمانية سنوات (٩١٨ - ٩٢٦ ﻫ) وقد تنازل له أبوه السلطان بايزيد الثانى عن الملك رغما عنه باجبار من الينكشاريه وذلك أن السلطان سليم كان أصغر اخوته الا أنه كان محبوبا عند الينكشاريه لميله الى الحروب والغزوات بخلاف أخيه الاكبر كركود الوارث للسلطنة فانه كان مبغوضا عندهم لما يجدونه فيه من الميل الى الفنون والعلوم فلما رأى السلطان سليم ميل الينكشاريه اليه وتعضيدهم له أقام على أبيه راية العصيان ولم يزل يتظاهر عليه مرارا حتى التزم أبوه بان يتنازل له عن الملك بناء على طلب الينكشاريه وقد كان هذا الملك ذا همة عالية وقريحة وقاده شاعرا بليغا له القصائد الباهرة فى الفارسية والتركية والعربية محبا للعلم والعلماء متيقظا الامور

المملكة الا أنه كان شديد البأس عظيم القسوة سفاكا للدماء فانه لما صعد على كرسى
المملكة أراد أن يثبت قدمه فيها فامر بقتل أولاد اخوته ثم قبض على أخويه كركود
وأحمد الذين نازعاه فى الملك وقتلهما أيضا وقتل سبعة من الوزراء أثناء سلطنته وفى
مبدأ حكمه أمر بقتل أربعين ألفا من الاهالى بدعوى أنهم من الشيعة حتى كان ذلك
سببا فى وقوع الحرب بينه وبين اسماعيل شاه ملك العجم فأغار السلطان سليم على بلاده
بجيش مؤلف من ١٨٠,٠٠٠ مقاتلا وأوغل بهذا الجيش فى تلك البلاد حتى وصل
الى سهل تشالديران فتقابل بجيوش العجم هنالك وهزمهم وكسب منهم أموالا عظيمة
غير أنه التزم بالعود الى بلاده بسبب القحط الذى لحق بجيشه وهيجان الانكشاريه
ولكنه لم تخل هذه الحرب من فائدة له فقد دخل تحت حكمه من ممالك العجم الكردستان
وديار بكر وأرض الموصل ثم وجه أنظاره لحرب مصر فأغار عليها سنة ٩٢٢ ﻫ
فى عهد قنسو الغورى فدخل بلاد الشام وتلاقى بجيوش قنسو عند مرج دابق بقرب
حلب فوقع بينهما قتال شديد ففشل الجيش المصرى لكثرة نيران الترك حيث لم يكن
معه من المعدات الحربية سوى الرمح والسهم وأحدقت به الجيوش العثمانية فانضم
الى الجيش العثمانى خير بك قائد الجناح الايمن بمن معه والغزالى قائد الجناح الايسر
بمن معه وبقى قنسو فى القلب بمن معه وأحاطت به الاعداء فاراد أن يهرب فسقط عن
جواده وهلك تحت أرجل الخيل بعد أن قاتل قتالا تعجز عنه الابطال فدخلت حينئذ
جميع بلاد الشام تحت حكم السلطان سليم ولقب فى الخطبة بخادم الحرمين الشريفين
سنة ٩٢٢ ﻫ وأما الجيش المنهزم ففر الى مصر وتجمع ثانيا تحت قيادة الملك الاشرف
طومان باى الذى خلف قنسو الغورى على ملك مصر فبعد أن وطد السلطان سليم
سلطته على بلاد الشام سار قاصدا مصر حتى أتى الخانكاه على بضع ساعات من القاهرة
وكان طومان باى لما جمع جيوشه سار لملاقاة العثمانيين حتى أتى الصالحيه وعسكر
هنالك فلما بلغه أن السلطان سليم عرج بجيشه الى القاهرة حتى قرب منها تاركا الصالحيه
عن يمينه عاد طومان باى بجيشه لمهاجمته من الوراء فالتقى الجيشان قرب بركة الحج

فى يوم الجمعه ٢٩ ذى الحجه سنة ٩٢٢ ﻫ واقتتلا قتالا شديدا فاظهر المماليك بسالة عظيمة لكنهم انهزموا أخيرا لوجود المدافع عند العثمانيين ففروا الى القاهرة وأما العثمانيون فعسكروا فى جزيرة الروضه فجمع طومان باى من نجوا من جيشه وضم اليهم عددا كبيرا من العربان بعد أن أرضاهم بالمال وهجم على معسكر السلطان سليم هجمة اليأس فصده الحرس السلطانى فعاد الى القاهرة وأغلق أبوابها وحصن شوارعها بحيث ان السلطان سليم لم يتمكن من فتحها الا بعد المقاومة الشديدة من طومان باى والمماليك الذين معه فقد ثبتوا ثباتا عظيما وأظهروا من البسالة والاقدام ما لامزيد عليه فلم يسلم شارع الا بعد واقعة خصوصيه له ولم يؤخذ بيت الا بعد حصاره وتغطت الارض بجثث العثمانيين فاقتص منهم العثمانيون قصاصا فظيعا فانهم لما دخلوا المدينة أمعنوا فيها اقتلا ونهبا وحرقا وفتحوا القلعة عنوة وقتلوا من فيها أما طومان باى فتمكن من الفرار على معدية قطع بها النيل الى الجيزه ومنها سار قاصدا الاسكندريه فأقام بالوجه البحرى يناوش الجيوش العثمانية على الدوام لا يترك لهم هدنة ولا راحة فعزم السلطان سليم على أن ينهى الامر معه وسار قاصداله باربعين ألف مقاتل فتخلت العربان عن طومان باى فلم يقدر على الاستمرار على المقاومة لقلة جيوشه فالتجأ الى أحد مشايخ العربان فسلمه هذا بعد بضع أيام الى السلطان سليم فابقاه السلطان سليم مدة عشرة أيام وصار يجتمع به ويسأله فى أمر محصولات البلاد وخراجها وادارتها ثم أمر بشنقه على باب زويله فى ١٩ ربيع الاول سنة ٩٢٣ ﻫ وبقيت جثته معلقة مدة ثمانية أيام ثم أمر السلطان سليم بدفنها قرب قبر قنسو الغورى وبعد دفنه بثلاثة أيام دخل السلطان سليم عاصمة الديار المصريه ظافرا فى غاية ربيع الاول سنة ٩٢٣ ﻫ وبعد يسير نزل الى الاسكندريه فى فرقة من جيوشه لوضع الحماية عليها ثم عاد الى القاهرة ومكث فيها الى ٢٠ شعبان من تلك السنه ثم بارحها قاصدا الروملي ومعه أموال عظيمة ولما فتحت الديار المصريه دخل تحت حكمه أيضا الاقطار الحجازيه لارتباطها بها وقد كان بمصر من الخلفاء العباسيين وقت فتوح العثمانيين لها محمد المتوكل على الله

الخليفة الثامن عشر من الدولة العباسية الثانية فرأى السلطان سليم أن يقبض على الازمة الدينية أيضا لتوطيد سلطنته فخلعه من الخلافة وأرسله الى الاستانه وخصص له راتبا معينا لنفقاته فصارت الخلافة الاسلامية للعثمانيين من وقتئذ وأول خلفائهم هو السلطان سليم أما المتوكل على الله فقد عاد الى مصر قبل وفاة السلطان سليم بيسير وعاش فيها منفردا الى أن توفاه الله سنة ٩٤٥ هـ فكان هو آخر الخلفاء العباسيين

الفصـــــــل الثانى

(وفيـــــه مطلبان)

(المطلب الاول)

(فى ذكر مصر مدة حكم الدولة العثمانية)

قد دخلت مصر تحت حكم هذه الدولة سنة ٩٢٣ هـ أى بعد انتصار السلطان سليم على طومان باى وأخذه منه مدينة القاهرة واستمر حكمها بها نحو المائتين وتسعين سنة فصار السلاطين العثمانيون يرسلون اليها ولاة من طرفهم حائزين لرتبة الباشاويه بل وكان أغلبهم من الوزراء أما اول هؤلاء الولاة فكان خير بك أحد كبار رجال قنسو الذين انضموا الى الجيش العثمانى فى واقعة مرج دابق وقد ولاه السلطان سليم على مصر بلقب باشا ولكنه لم يصرفه فى البلاد كيف شاء بل جعل واجباته ابلاغ الاوامر السلطانية لرجال الحكومة وللشعب ومراقبة تنفيذها وحدد سلطته بكونه ألف له مجلس شورى من ضباط الجيش الذى أبقاه فى مصر وذلك انه أقام فى القاهرة وفى المراكز المهمة من القطر المصرى اثنى عشر ألف عسكرى منها ستة آلاف من الفرسان وستة آلاف من المشاة وجعلها ستة وجاقات تحت قيادة خير الدين باشا أحد رؤساء الجيش العثمانى وأمره أن يقيم فى القلعة ولا يخرج منها لاى سبب كان وكان على كل وجاق ضابط يلقب بالاغا يصحبه الكخيا والباش اختيار

والدفتردار والخزندار والروزنامجى فمن اجتماع هؤلاء الضباط من سائر الوجاقات كان يتألف مجلس شورى الباشا فلا يقضى أمرا الا بمصادقتهم أماهم فكان لهم أن يوقفوه عن الاجراء وأن يستأنفوا الى ديوان الاستانة عند الاقتضا ولهم أيضا أن يطلبوا اعزاله حالما يشتبهون فى مقاصده ثم لاجل حفظ الموازنة بين الباشا والوجاقات جعل على ادارة الاقاليم اثنى عشر أميرا من أمراء المماليك الذين هم فى الاصل أعداء لكلا الفريقين فكانت منفعتهم السياسية تحملهم على الانتصار للفريق الاضعف ليمنعوا الاقوى من الاستبداد وكان هؤلاء الامراء يعرفون بالسناجق فان مصر كانت منقسمة الى اثنى عشرة مقاطعة حربية كل منها تسمى سنجقلية يحكمها حاكم يقال له سنجق أو بيك يعينه الديوان (وهو مجلس شورى الباشا) من أمراء المماليك الذين دخلوا تحت الطاعة العثمانية فكان الباب العالى يرى فى اختلاط ادارة البلاد بهذه الصفة مصلحة له وهى حفظ سيادته عليها وان كان ذلك يؤدى الى ما يؤدى من القلاقل والمتاعب فى البلاد ولم يزل خيربك باشا واليا على مصر حتى أدركته الوفاة سنة ٩٢٨ ه أى بعد موت السلطان سليم بسنتين وكانت أيامه كلها ظلما وجورا وعانت منه الاهالى المشاق والمتاعب العظيمة

ولما خلف السلطان سليمان أباه السلطان سليم على كرسى الخلافة العثمانية أكثر من اهتمامه بمصر وتنظيمها اداريا وماليا فانشأ بالقاهرة ديوانين تحت رئاسة الباشا الوالى يكونان مجلس شوراه أحدهما يعرف بالديوان الكبير والآخر بالديوان الصغير أو الديوان فقط فالديوان الصغير كان أعضاؤه من تقدم ذكرهم وأما الديوان الكبير فكان من أعضائه أيضا القاضى الاكبر وأمير الحج ومشايخ المذاهب الاربعة والمفتيون الاربعة وغيرهم من المشايخ ورؤساء الاشراف وجعل نفسه المالك لجميع أرض مصر فصار يفرقها اقطاعات على مزارعين يدعون بالملتزمين لهم الحق فى اقطاعهم اياها أيضا وكان الفلاحون الذين يحرثون تلك الاراضى لهم نصيب فيها يورثونه أعقابهم ولكنهم كانوا مجبورين على العمل فيها بدون حق التصرف بها وعليهم خراج يدفعونه للملتزمين فاذا

توفى فلاح عن غير وارث تعطى أرضه للملتزم وهو يعهد بحراثتها الى من شاء واذا مات الملتزم عن غير وارث تعود الارض للسلطان وكان على كل من الملتزمين والفلاحين خراج يدفعونه امانقدا واما عينا فاذا تأخر الفلاح عن الدفع يمنع من نوال نصيبه واذا تأخر الملتزم تؤخذ منه الارض

وقد جعل أيضا السلطان سليمان باشاوية مصر سنوية فقط أى أن الوالى لا يعين الا لمدة سنة ثم يعزل أو تجدد مدة توليته بفرمان جديد فكثر تغير العمال عليها ومنع استتباب الراحة من البلاد سيما أن كثيرا من هؤلاء العمال لم يحرصوا الا على اقتناء الثروة وجمع الاموال فتركوا الاحكام لبيكوات المماليك حتى انتزعت السلطة فى البلاد من أيديهم شيأ فشيأ وصارت لامراء المماليك فصار رئيسهم المدعو شيخ البلد هو أمير البلاد الحقيقى فلم يلبثوا أن ظهرت بينهم المخاصمات فاشعلوا نار الحرب فيما بينهم حتى صارت القاهرة مع ضواحيها مخضبة بالدماء ولم يتداخل الولاة فيما بينهم الا بصفة ثانوية بل انحازوا الى القلعة وصاروا كانهم لم يأتوا الى مصر الا لينظروا نظر الناقد المتفرج تلك المخاصمات والمحاربات الشديدة التى تقع بالقاهرة ولم يهتم أيضا سلاطين الدولة بما يقع فى مصر من الحوادث حتى وهنت سلطتهم عليها شيأ فشيأ كذلك

ومنشأ تلك الحروب الداخلية أن المماليك بمصر كانوا منقسمين الى طائفتين عرفت احداهما بالقاسمية والاخرى بالفقارية فظهرت العداوة بينهما فى سنة ١١١٩ هـ (أيام السلطان احمد خان) وحصلت بينهما وقائع أدت الى وفاة قاسم عيواظ بيك رئيس الطائفة القاسمية فخلفه فى مشيخة البلد مكانه ابنه اسماعيل بيك وأقام فيها مدة ستة عشر سنة مع السلطة التامة ثم قتل فاعقب موته زمن فوضوية تنازع فيه السلطة جملة بيكوات الواحد بعد الآخر وكان نزعهم اياها من بعضهم بالخيانة وفقد الحياة وقد نبغ من بين هؤلاء الاخلاط رجل كان على جانب عظيم من الحذق والفطانة والحلم والاستقامة والعدل والشجاعة يدعى على بيك الكبير فوصل فى زمن قليل بما فيه من هذه الصفات الى أعلى مراتب الشرف والرفعة حتى تقلد مشيخة البلد سنة ١١٧٧ هـ

فطهر مصر من عصاتها وقطع دابر المفسدين فيها غير أن أعداءه كانوا لا ينفكون عن
الايقاع به عند جلالة السلطان فبينما كان يجهز جيشا مؤلفا من اثنى عشر ألف مقاتل
حسب أمر الباب العالى لمساعدة الدوله ضد الروسيه وشى به أعداؤه الى السلطان
مصطفى الثالث بانه يرغب الانضمام الى الروسية لتساعده على الاستقلال بمصر فارسل
السلطان الى الوالى بان يقتله ويرسل رأسه الى القسطنطينية فلما علم بذلك على بيك جمع
فى الحال بكوات المماليك وأعلنوا جميعا استقلال مصر وأمروا الوالى بان يخرج منها
فى الحال وأخذ على بيك فى الاستعداد لمقاومة الدوله واستقل بادارة مصر وتنظيم حالها
وخفف الاموال على الاهالى وخطب له وضرب الدراهم باسمه ثم عزم على افتتاح بلاد
الشام فارسل اليها أحد مماليكه المدعو محمد بيك أبو الذهب بجيش مؤلف من ثلاثين
ألف مقاتل فاستولى محمد بيك على جميع بلاد الشام تقريبا فى مدة قليلة ولكنه اتحد
سرا مع الباب العالى ضد على بيك فجمع من هناك جيوشا عديدة ضمها الى جيوشه وعاد
بها الى القاهرة لمحاربة على بيك من قبل السلطان فانهزم على بيك والتجأ الى عكه ولكنه
عاد الى مصر فى السنة الثانية بجيش مؤلف من ثمانية آلاف مقاتل معتمدا على مكاتبات
وصلت اليه من بعض الجند وبعض الامراء بالقاهرة فعسكر بالصالحية وهناك
انتشبت الحرب بينه وبين محمد بيك فانهزمت جيوشه حيث انضم الى عدوه اثنان من
قواد جيشه وهما ابراهيم بيك ومراد بيك وأماهو فابت نفسه الفرار فبقى فى خيمته
يقاوم أعداءه المقاومة الشديدة مع ما أصابه من الجروح الجسيمة ولم يؤخذ الا بعد أن بقى
غريقا فى دمه لا يستطيع حراكا فحمل الى القاهرة ومات فيها بعد بضعة أيام سنة ١١٨٧ هـ
ثم لحقه أيضا فى السنة الثانية محمد بيك أبو الذهب فتنازع السلطة بعد هذا اسمعيل بيك من
جهة وابراهيم بيك ومراد بيك من الجهة الاخرى ولكنه فاز بها أخيرا هذان الاخيران
فحكما مصر أكثر من عشرين سنة فافرطا فى الظلم والعدوان وبعد أن أفنيا أموال
الاهالى التفتا الى نهب التجار الاوربا وين القاطنين فى القاهرة والاسكندرية ورشيد
ولم يجد نفعا معهما تداخل الباشا الوالى ولم يصغ السلطان سليم الثالث الى تشكيات

الاهالى ولم تفد تشكيات القناصل الا زيادة الظلم والعدوان فكتب حينئذ شارل مجاللون قنصل فرانسا الى مجلس النظار بباريس فارسلت حكومة فرانسا الى مصر جيشا فرنساويا تحت رئاسة الجنرال نابليون بونابارت

وقد كان جل قصد فرانسا من هذه التجريدة أنها تحتل بتملكها على مصر موضعا حسنا يسمح لها بتهديد الانجليز فى الهند فوصلت العمارة الفرنساوية الى ثغر سكندرية فى ١٨ محرم سنة ١٢١٣ هـ وتملك الفرنساويون على هذه المدينة بعد مقاومة قليلة ثم قصدوا مدينة القاهرة بجيش مؤلف من أربعة وثلاثين ألف مقاتل فساروا على الشاطئ الايسر للنيل حتى وصلوا أمام هذه المدينة بعد خمسة عشر يوما فقابلهم مراد بك بجيوشه وحصلت بينه وبينهم واقعة عظيمة عند انبابه بقرب الجيزه فانهزم مراد بك وفر الى الصعيد فاقتفى أثره الجنرال ديزه أحد قواد بونابارت الى الشلال الاول ودخل الفرنساويون مدينة القاهرة بعد أن خرج منها الوالى مسافرا الى الشام بعساكر الوجاقات فجعل بونابارت على ادارة المدينة ديوانا مؤلفا من عشرة أشخاص من أعيان البلد ثم خرج من القاهرة لتبديد جيوش ابراهيم بك فوصل الى الصالحية وتملك عليها وفر ابراهيم بك الى بلاد الشام فعاد بونابارت حينئذ الى القاهرة ووصله فى الطريق أثناء عوده خبر موقعة أبى قير التى حطمت فيها العمارة الانجليزيه العمارة الفرنساويه برمتها وكان سبب ذلك أن انكلترا كانت قد أرسلت من منذ خروج العمارة الفرنساوية من ميناها أحد أمير الاتها نلسون فى اسطول ليقتفى أثر الاسطول الفرنساوى فى البحر الابيض المتوسط ويقاومه اذا رأى منه مساسا لحقوق انكلترا فلما علم هذا الاميرال بدخول الفرنساويين فى القطر المصرى حضر الى الاسكندريه فى ١٩ صفر سنة ١٢١٣ هـ فوجد العمارة الفرنساويه راسيه فى خليج أبى قير فهجم عليها فى هذا الموضع ودمرها فصارت الحملة الفرنساويه من وقتئذ فى مقام حرج ثم علم بونابارت أيضا أن الدوله العلية سعت الى استرجاع مصر من الفرنساويين وبعثت الى أحمد باشا الجزار والى عكا أن يرسل جيشا لاحتلال العريش فجهز حينئذ بونابارت جيشا ليس

للمدافعة عن مصر فقط بل لافتتاح الشام أيضا فافتتح فيها بعض المدن ولكنه لم يقدر على فتوح عكا لمدافعة الاسطول الانكليزي عنها من البحر فعاد الى مصر بعد أن لحق بجيشه العذاب الاليم لما قاساه من شدة الحر والعطش ونظرا لتعقب العمارة الانكليزيه له فى البحر وتعرض العربان له فى البر فلم يلبث بوناپارت بعد رجوعه الى مصر أن بلغه خبر قدوم العساكر العثمانية الى أبى قير ونزولها الى البر فاسرع لملاقاتها بجيش مؤلف من ستة آلاف مقاتل هزم به جيش الترك وأعدمه كلية غير أنه بعد هذا النصر بشهر تقريبا طلب فى فرنسا لصادم أخطارا أحدقت بها فسافر من مصر تاركا قيادة العساكر فيها الى الجنرال كلابر أفضل قواده حزما وعقلا وهيبة وأنفة وبسالة فاستمال هذا الجنرال الاهالى بحسن عدله وحلمه ولكنه عرف عدم امكان استمرار الفرنساويين على احتلال مصر فاخذ فى المخابرة مع الصدر الاعظم يوسف باشا الذى أرسلته الدوله لاخراج الفرنساويين من مصر فعينا نوابا من طرفيهما اتفقوا على معاهدة عرفت بمعاهدة العريش من مقتضاها أن الجيش الفرنساوى يتخلى عن مصر فى مدة ثلاثة أشهر ويحمل الى فرنسا على مراكب تركيه غير أنه لم يتم أمر هذه المعاهدة لعدم قبول نواب الحكومة الانجليزيه بالتصديق عليها فعادت البغضاء بين الطرفين وسار كلابر لملاقاة جيش الترك فقابله بين المطريه وسرياقوس فانهزم جيش الترك وتقهقر الى الوراء غير أن شرذمة منه تقدمت الى أبواب القاهرة متبعة شاطئ النيل فظن الاهالى أن جيش الفرنساويين قد عدم فقاموا على من بها من الخفر فانحاز هؤلاء الى القلعة فاوقع أهالى القاهرة بالنصارى القاطنين بها قتلا ونهبا فعاد كلابر من اقتفاء أثر يوسف باشا وحاصر المدينة وجبر الاهالى على التسليم ولكنه عوضا عن أن يقتص منهم قصاصا فظيعا اكتفى بان يضرب عليهم غرامات ثقيلة ثم بعد ذلك بمدة قليلة وثب رجل اسمه سليمان الحلبى على الجنرال كلابر وطعنه بخنجر فى صدره فمات فصارت رئاسة الجيش للجنرال مينو فلما وجد هذا الجنرال نفسه مجبورا على أن يقاوم فى آن واحد جيش الصدر الاعظم الآتى من الشام وجيش

الانجليز الذى نزل بشاطئ أبى قير وجيشا آخر أتى من الهند وسار من القصير الى قنا التزم بان يعقد معاهدة الانجلاء عن مصر فانجلى عنها سنة ١٢١٦ هـ وحمل الجيش الفرنساوى بكافة مهماته الحربية من أسلحة وذخائر الى فرنسا على مراكب انجليزيه وبعد انسحاب الجيش الفرنساوى انسحب الجيش الانجليزى وبقى فى مصر يوسف باشا بالجيش العثمانى فطلب قبل سفره أيضا من الباب العالى تولية خسرو باشا على مصر فتولى هذا عليها ولكنه لم يقو على مقاومة المماليك أيضا وكانوا تحت رئاسة عثمان بيك البرديسى ومحمد بيك الالفى فالتزم بالخروج من القاهرة وتولى عوضا عنه بصفة قائمقام موقتا باقرار من القضاة وأرباب الديوان بمصر طاهر باشا فلاقى من المماليك أيضا مالاقاه سلفه واشتد الخصام فى أيامه حتى انتهى بقطع رأسه فاصبحت مصر بغير وال يدير أعمالها فسنحت الفرص حينئذ للرجل العظيم المغفور له محمد على باشا رأس العائلة الخديويه باظهار فضائله وما اختص به من البسالة والاقدام

(المطلب الثانى)

(فى ذكر العائلة الخديوية)

رأس هذه العائلة هو الرجل الهمام محمد على باشا وقد ولد هذا الشهم بمدينة قوله من أعمال الروملى سنة ١١٨٢ هـ من أب يدعى ابراهيم أغا كان من ضباط تلك المدينة فتوفى أبوه وهو فى الرابعة من عمره ثم عمه بعد أبيه بمدة يسيرة فكفله حاكم مدينة براوسطا أحد أصدقاء والده ورباه على استعمال السلاح وزوجه وهو فى سن الثامنة عشرة باحدى قريباته وكانت ذات يسار فكان ذلك مبدأ ثروته فاشتغل بالتجارة بالاشتراك مع تاجر فرنساوى من قوله ونجح فى أعماله خصوصا فى تجارة الدخان الذى كان أعظم محصولات بلدته ثم لما جردت الدولة العثمانية الى مصر التجريدة التى أرسلتها لمحاربة الفرنساويين بها كان من ضمن تلك التجريدة ثلاثمائة رجل صار جمعهم من مدينة قوله فأرسلوا الى مصر تحت قيادة على أغا ابن والى قوله برفقة العمارة العثمانية وكان من جملتهم محمد على بوظيفة وكيل على هذه الطائفة العسكرية فقدم مصر سنة ١٢١٤ هـ

وحضر موقعة أبى قير التى هزم فيها جيش الترك تحت رئاسة مصطفى باشا فبعد هذه الكسرة عاد على أغا الى بلاده بعد أن عهد قيادة فرقته الى محمد على فارتقى هذا الى رتبة البكباشى ثم دخل فى خدمة خسرو باشا حين تقلد ولاية مصر من لدن الدولة العثمانية ولم يزل يتقدم بسبب كفاءته الى أن ارتقى الى رتبة أمير اللوا فظهر حينئذ فى ميدان الظهور وكانت الدولة العلية قد أصدرت أوامرها الى خسرو باشا بابادة من بقى من المماليك بمصر وقطع دابرهم على قدر الامكان فجرد تجريدة وجهها على كل من رئيسيها الاصليين عثمان بيك البرديسى ومحمد بيك الالفى فانهزمت هذه التجريدة عند دمنهور شر هزيمة وكان انهزامها قبل وصول محمد على ورجاله الى الموقعة فاتهمه قائد الحملة ونسب كسرها الى تأخيره وشكاه الى خسرو باشا فانتهز الباشا فرصة هذه التهمة وأراد أن يفتك به لما شاهده من ازدياد نفوذه ولكنه اتفق فى ذلك الوقت قيام العسكر لتأخر صرف جماكيهم فعمدوا الى الثورة والهيجان وتمكنوا من أخذ القلعة بالقوة وجبروا الوالى على الفرار منها فتقلد ولاية مصر مكانه طاهر باشا رئيس العسكر المتمردة ولكنه لم يمكنه أن يفى للعسكر بطاوباتهم أكثر من خسرو باشا فقتلوه فى داخل قصره فطلب الينكشارية تولية احمد باشا فلم يرغب محمد على بذلك وكان قد ملك القلعة ومعه رجاله الارناؤط فكاتب عثمان بيك البرديسى وابراهيم بيك من رؤساء المماليك واتحد معهما على اخراج احمد باشا من المدينة فأرسلوا اليه بالخروج منها فلم يسعه الا امتثال الامر ثم اتفق محمد على مع عثمان بيك البرديسى على محاربة خسرو باشا فحصره البرديسى بدمياط وأسره هنالك وأتى به الى القاهرة وسلمه لابراهيم بيك سنة ١٢١٨ هـ ولما بلغ هذا الخبر مسامع الدولة أرسلت الى مصر على باشا الجزايرلى ليجلس مكان خسرو باشا ويقتص من الجانين ولكن سوء تدبيره أوقعه فى أيدى المماليك فقتلوه وفى خلال تلك المدة كان عود محمد بيك الالفى من انكلتره حيث كان استصحبه معه جيش الانكليز عند خروجه من مصر أملا فى تنقيص قوة البرديسى فاجتهد محمد على فى ايجاد الشقاق بين الالفى والبرديسى ووقوع الحرب بينهما ففر الالفى الى الصعيد ثم التزم البرديسى أيضا

بالخروج من القاهرة لقيام العسكر والاهالي عليه فصارت جميع السلطة لمحمد علي واتحدت معه جميع القوة العسكرية والملكية فأراد أن يعيد خسرو باشا الولاية مصر فأبى الارناؤط وذهبوا به الى رشيد ومنها سافر الى القسطنطينية فجمع محمد علي المشايخ والعلماء وتشاور معهم في تولية خورشيد باشا والى الاسكندريه ولاية مصر فوافقوه على ذلك وطلبوا أن يكون هو كتخداله أي بصفة قائمقام وكتبوا الى الباب العالي بذلك فأقر عليه وذلك سنة ١٢١٨ ﻫ فاستقدم خورشيد باشا فرقة من العساكر الدالتليه أو الدلاه (نوع من الجنود الاجريه) خوفا من الارناؤط فأكثر هؤلاء من النهب والسلب في المدينة ولم يرجعهم خورشيد باشا فسئمت نفوس الاهالي فقاموا على خورشيد باشا وعزلوه وطلبوا تولية محمد علي مكانه فامتنع أولا ثم رضي فكتب المشايخ والعلماء بذلك الى الباب العالي فصدرت الارادة السنيه بفرمان يأذن له بتولية الديار المصريه سنة ١٢٢٠ ﻫ وأما خورشيد باشا فبقي منحازا في القلعة الى أن جاءه مندوب مخصوص من الاستانه يأمره بأن ينزل عن منصب الولايه لمحمد علي ويتوجه الى الاسكندريه فلما علم محمد بيك الالفي بتولية محمد علي باشا على الديار المصريه اغتم كثيرا وتعاهد مع دولة الانكليز على أن تساعده على خلع محمد علي وان يتولى مكانه على الديار المصرية وهو يسلم اليها السواحل المصرية فاجتهد سفير انكلترا بالاستانه في هذا الامر وضمن للدولة العليه مبلغ العوائد المرتبة لها على الديار المصرية بشرط اعادة طائفة المماليك بها كما كانوا تحت رئاسة محمد بيك الالفي فأجابت الدولة العلية هذا الطلب وأرسلت الى مصر سنة ١٢٢١ ﻫ اسطولا وفيه موسى باشا والي سلانيك ليتولى على مصر بدل محمد علي باشا ويسافر محمد علي الى سلانيك ليكون واليا عليها بدلا عنه فاظهر محمد علي الامتثال لهذا الامر ولكن المشايخ والعلماء كتبوا محضرا الى السلطان يعددون فيه أوجه تضرراتهم من دولة المماليك ويلتمسون به ابقاء محمد علي باشا واليا عليهم وكانت في أثناء ذلك الوقائع جارية بين محمد علي باشا والمماليك بجهتي البحيره والصعيد فان محمد بيك الالفي كان معسكرا بالبحيرة ليتمكن من المخابرة مع سفير

انكلترا بسكندريه وأما عثمان بيك البرديسى وابراهيم بيك فكانا مقيمين بالصعيد وقد أرسل قبودان باشا الاسطول العثمانى يطلب من الالفى مبلغ الالف وخمسمائة كيس التى وعد باداءها للخزينة السلطانية فأجابه الالفى بأن طائفة المماليك مادامت متركبة من ثلاث فرق فهو مستعد لاداء ما يخص فرقته من ذلك اذا كانت الفرقتان الاخريان تؤديان ما يخصهما ولما بلغ عثمان البرديسى ما قاله الالفى أجاب بان الالفى لداعى كونه الرئيس الاكبر لجميع طائفة المماليك يقتضى أن يكون هو الملزم دون غيره بدفع المبلغ المطلوب فلما بلغ قبودان باشا خبر جوابهما تحقق الخلاف الواقع بينهما فاستشاط غضبا وانعطف نحو محمد على باشا وألقى سمعه لنصيحة قنصل فرنسا الذى كان يعضد محمد على باشا واجتهد أيضا سفير فرنسا بالقسطنطينية فى تفهيم الباب العالى بحقيقة الحال فصدرت الاوامر الى القبودان باشا بتفويض اليه اجراء ما يقتضى مع مراعاة المصلحة السلطانية فدخل القبودان باشا حينئذ فى باب المكالمة مع محمد على باشا واستقر الحال بينهما على أن يصدر الى محمد على باشا فرمان جديد بتقريره فى ولاية مصر بشرط أن يدفع للخزينة الدولة مقدمة مبلغ أربعة آلاف كيس وعلى ذلك سافر القبودان باشا من الاسكندرية وبعد شهر من تاريخ سفره ورد لمحمد على باشا فرمان التقليد الجديد سنة ١٢٢١ هـ فتمكنت شوكته وصفاله الوقت سيما بموت عثمان بيك البرديسى ومحمد بيك الالفى فى وقت متقارب فى السنة المذكورة الا أن دولة انكلترا لما رأت هبوط مسعاها لدى الدولة العلية ونفوذ دولة فرنسا لازالت مصممة على تعضيد المماليك فارسلت الى مصر سنة ١٢٢٢ هـ اسطولا انجليزيا فاستولى على الاسكندرية وخرجت فرقة من الانكليز للتملك على رشيد فانهزموا شر هزيعة ثم مزقت جيوشهم أيضا عساكر الارناؤط كل ممزق فالتزموا بعقد الصلح مع محمد على باشا وسافروا الى بلادهم

ولما أجبر محمد على باشا الانجليز على الاقلاع من الديار المصريه التفت الى اصلاح الاحوال الداخليه وكان اذ ذاك قد استفحل أمر العرب الوهابيه بالاقطار الحجازية فاستولوا على الحرمين الشريفين وقطعوا الطريق على الحجاج والمسافرين

فصدرت اليه الاوامر السلطانية بتوجيه تجريدة لمحاربتهم وتخليص مكة والمدينة من أيديهم فاهتم محمد على باشا بالامر واجتهد فى انشاء عمارة مصرية بالسويس لتحمل عساكره الى الاقطار الحجازية ولكنه خشى بأس المماليك وخاف شرهم بعد سفر العسكر الارناؤط من القاهرة فاجتهد فى قطع دابرهم أولا واهلاكهم عن آخرهم ولاجل اتمام هذا الغرض دعاهم سنة ١٢٢٦ ﻫ الى قلعة الجبل لحضور تقليد ولده طوسون باشا بقيادة جيش الحجاز وعقد موكبا لهذا القصد فلما اجتمعت جميع المماليك بالقلعة بدت اشارة فاغلقت عليهم أبوابها وضربت عليهم عساكر الارناؤط بالبنادق من أبراج القلعة وكانوا كامنين لهم فيها فقتلوهم عن آخرهم ثم سافر طوسون باشا بتلك الحملة الى ينبع واستخلص المدينة ومكة من الوهابيين ولكن رئيسهم سعود حضر بنفسه وحاصر المدينة فارسل طوسون باشا الى أبيه فحضر محمد على باشا بنفسه الى الاقطار الحجازية وعزل الشريف غالب عن ولاية الحرمين الشريفين وولى غيره وصادف أن مات الامير سعود وتولى على الوهابيين ابنه عبدالله وما كان فى الكفاءة والفضل مثل أبيه فانهزم الوهابيون فى عدة وقائع وكاد أن يفتح محمد على باشا جميع الاقطار الحجازية لولا أنه التزم بالعود الى مصر سريعا لامور مهمة وذلك أنه لما فتح المدينة بجنوده كان قد أرسل الخبر بذلك الى اسلامبول على يد رجل يدعى لطيف باشا كان متقلدا بوظيفة خزندار فسعى هذا الرجل عند أرباب الدولة بالايقاع بمحمد على باشا وتعهد بقلعه عن منصبه اذا كانت الدولة تساعده فصغت الدولة الى طعنه وأرسلته الى مصر وبيده خط شريف بتقليده ولايتها فلما حضر الى مصر أظهر هذا الفرمان وقت تغيب محمد على باشا فى الاقطار الحجازية ولكنه قبض عليه فى الحال وقتله محمد لاظوغلى كتخدا محمد على باشا وكان نائبا عنه فى ولاية الامر بمصر فى مدة تغيبه وكانت الدولة العثمانية أرسلت الى الاسكندرية فى ذلك الوقت أيضا اسطولا عثمانيا لتأييد سلطتها على مصر فهذا الذى أوجب عود محمد على باشا سريعا من بجزيرة العرب فلما حضر الى مصر أخذ فى تشييد الثغور المصرية وتجهيز المعدات الحربية وأراد أن يؤسس عساكره على

النظام الجديد نظام جند أوربا فعارضه فى ذلك العساكر بالقاهرة ولاسيما الارناؤط حتى آلت المعارضة الى ثورة فى القاهرة شاع خبرها فى الحجاز مع المبالغة وكان طوسون باشا لم يزل بتلك الاقطار وقد وقع على شروط بينه وبين أمير الوهابية عبد الله بن سعود من جملتها انه يرد الى الضريح النبوى الشريف ماسلبه الوهابية من الاسلاب فترك طوسون باشا فى المدن الكبيرة مايلزم من العساكر المصريين المحافظين وعاد الى مصر فلم يلبث أمير الوهابية أن فسخ ذلك العقد ولم يعمل بمقتضى الشروط التى عقدها على نفسه فعزم محمد على باشا على معاودة جهاده بالثانى فارسل اليه تجريدة تحت رئاسة أكبر أولاده ابراهيم باشا فزق هذا طائفة الوهابيين كل ممزق ودخل تحت طاعته عدة من قبائل العرب واستولى على عدة حصون وأسر أمير الوهابية عبد الله بن سعود وأرسله الى مصر ومنها أرسل الى القسطنطينية فقتل هناك ثم عاد ابراهيم باشا الى مصر بجميع عساكره وقد لقبه السلطان بوالى مكة فعظم قدره وارتفعت مكانته

ولما أنهى محمد على باشا الحرب فى بلاد العرب عزم على افتتاح السودان واخضاع قبائل النيل الاعلى حتى تكون عساكر الارناؤط بعيدة عنه دائما ليتمكن من تدريب العساكر على النظام الجديد واصلاح حال البلاد فأعد لذلك حملة عسكرية قلد رئاستها لولده الثالث اسماعيل باشا فسافر هذا القائد بتلك التجريدة الى بلاد السودان سنة ١٢٣٥ هـ واستولى على جميع بلاد سنار وكردفان وفازوغلى ولكنه فشا الوباء فى عسكره فعاد الى شندى فمات فيها محروقا

أما محمد على باشا فعاد الى تدريب الجند على النظام الجديد فأسس مدرسة عسكرية فى الخانكاه وجعل سراية مراد بك فى الجيزة مدرسة للفرسان وأنشأ مدرسة للطوبجيه وبنى فى سكندرية ترسخانة لعمارة السفن وأسس فيها مدرسة للبحرية ثم التفت الى نشر الزراعة فأدخل بمصر زراعات مختلفة أهمها زراعة القطن وأكثر من غرس الاشجار لترطيب الجو وأخذ فى تمهيد سبل التجارة فحفر ترعة المحمودية التى توصل مياه النيل الى الاسكندرية لتحمل عليها التجارة من هذه المدينة واليها وأنشأ جملة

معامل لانتشار الصناعة وأسس مدرستى الطب والاجزاجية ومستشفيات كثيرة ومدارس لتعليم الشبان المصريين وقسم القطر المصرى الى مديريات على كل منها حاكم يعرف بالمدير والمديريات الى مراكز وأقسام على كل منها مأمور ومن أعماله المهمة أيضا تشييد القناطر الخيرية على رأس الدلتا سنة ١٢٥١ ﻫ وبالجملة فقد أخذت مصر فى أيامه فى نشأة أخرى ودخلت فى عصر جديد من التمدن

وبينما كان محمد على باشا مشتغلا بتلك الاصلاحات الداخلية اذ أرسلت اليه الدولة العلية أن يبعث مقدارا من العساكر المصرية لاخضاع بلاد اليونان حيث كان أهلها أقاموا على الدولة راية العصيان فأعد محمد على باشا تلك الحملة تحت رئاسة ابراهيم باشا وسافرت من مصر سنة ١٢٣٩ ﻫ فاستتبت الراحة فى كريد واضمحلت المورة وان لم تخضع كلية

وكانت الدولة العلية قد وعدت محمد على باشا بأن تقلده بولاية البلاد اليونانية التى يعيدها لطاعة الدولة العثمانية غير أنها لم تعطه الا ولاية كنديه أى كريد فقط فتطلع لاخذ ولاية الشام بدل المورة التى التزم ولده ابراهيم باشا بتسليمها ولم يلبث أيضا أن حصل الخلاف بينه وبين عبد الله باشا والى عكه وذلك أنه لما عصى عبد الله باشا على الدولة العلية وتوسط محمد على باشا فى العفو عنه وعوده الى منصب الولاية كان قد التزم بدفع مبلغ ستين ألف كيسه تقدمة لخزينة الدولة العثمانية ولما لم يكن هذا المبلغ فى حوزته استلف من محمد على باشا نحو الخمس منه فمضى عليه أكثر من عشر سنوات ولم يرده فلما كانت حرب المورة اضطر محمد على باشا الى أن يطلبه لاحتياجه الى نقود يعد بها الحملة المتوجهة الى بلاد اليونان فلم يكد يجيبه عبد الله باشا الا بجواب واه جدا وزاد على ذلك أن ساعد على تهريب البضائع من الجمارك بجهة حدود الشام من الديار المصرية وأعان الفارين من الفلاحين المصريين على أن يتركوا أوطانهم الاصلية ويستوطنوا بالجهات الشامية ولما عرض محمد على باشا هذه القضية على الباب العالى أجابه بأن كلا من الشام ومصر من الولايات السلطانية بحيث يستوى لدى السلطان

أن رعاياه يقيمون فى أيهما شاؤا فرأى محمد على باشا أن يخاطب والى عكا آخر مرة بخصوص طلب رعاياه فأجابه بجواب ممتلئ من الكبر والعظمة فشرع حينئذ محمد على باشا فى تجهيز تجريدة الى بلاد الشام سنة ١٢٤٧ هـ وسافرت التجريدة فى البر والبحر من جهة العريش والاسكندرية وكان على الاسطول المصرى ابراهيم باشا رئيس التجريدة فنزل بيافا واجتمع بجيش البر واستولى فى أقرب وقت على غزة ويافا وحيفا ثم سار الى عكا وتملك عليها أيضا بعد أن حاصرها ستة أشهر برا وبحرا وأسر فيها عبد الله باشا وأرسله الى الاسكندرية ثم سار قاصدا دمشق فاستولى عليها وبارحها الى حمص والتقى هنالك بالجنود العثمانية التى كانت تحت قيادة محمد باشا والى طرابلس فهزمها شر هزيمة واستولى على حمص فخافت سوريا سطوة هذا القائد العظيم فسلمت له حلب وغيرها من مدن الشام فبعث الباب العالى حسين باشا السرعسكر بجيش عثمانى لايقاف ابراهيم باشا فلاقاه ابراهيم باشا عند اسكندرونه وانتصر عليه فلما رأى السلطان محمود انهزام العساكر العثمانية أرسل السرعسكر محمد رشيد باشا بجيش عرمرم فلما علم ابراهيم باشا بهذا الخبر قام بجيوشه من أدنه وقصد مضايق الطوروس فدخل فى سهول الاناطول وعسكر بجيشه فى قونيه منتظرا قدوم السرعسكر فلما قدم هذا بجيشه الجرار اقتتل الجيشان فانهزم العثمانيون ووقع السرعسكر أسيرا فى قبضة ابراهيم باشا ثم سار ابراهيم باشا حتى وصل الى كوتاهيه على مقربة من القسطنطينية ففزع حينئذ السلطان محمود وطلب المساعدة من الروسية فأرسلت له عشرين ألفا من الروسيين فتداخلت الدول اذ ذاك فى الامر وعقدت مع ابراهيم باشا معاهدة كوتاهيه سنة ١٢٤٨ التى من مقتضاها تقليد محمد على باشا بولاية الشام مع مصر وتقليد ولده ابراهيم باشا بولاية ايالة ادنة والحرمين الشريفين

أما الدولة العلية فقد أسرت أنها تنتقم لنفسها من محمد على باشا متى وجدت فرصة لذلك فصارت تجتهد غاية الاجتهاد فى اعادة النظام لقوتها العسكرية وسفنها البحرية وأخذت تحث الشاميين على العصيان فلما أمر محمد على باشا بجمع العساكر من جميع شبان

سكان الشام ظهرت الفتن بجميع نواحي جبل لبنان فاجتهد ابراهيم باشا في اخمادها
غير أن الدولة العليــة كانت قد وجدت المهلة الكافية لتنظيم جيوشها جهزت جيشا
عظيما تحت قيادة السرعسكر حافظ باشا زحف به الى الجهات الشامية فالتقى
العسكران بجهة نصيبين (وهي نزيب عند الافرنج) فانهزمت الجيوش العثمانيــة
وتقهقرت الى مرعش سـنة ١٢٥٥ هـ واتفق أن مات السلطان محمود في ذلك الوقت
وتولى مكانه على كرسي السلطنة العثمانية السلطان عبـد المجيد فتوسـطت الدول
الاوروباوية دفعة ثانية بين الدولة العلية والحكومة المصرية فانفذت الى محمد على
باشا معاهدة لوندره الموقع عليها من دولة الانجليز والدولة الفرنساوية ودولة الروسية
ودولتي النمسا والبروسية التي من مقتضاها أن يكون له ولاية مصر مع مزية التوارث
في عائلتــه وولاية عكة لمدة حياته فقط فلم يقبل بها محمد على باشا فحضر الاسـطول
الانجليزي الى بلاد الشام وتملك على بعض مدنها ثم حضر الى مصر وتهدد الاسكندريه
فرأى محمـد على باشا أن الاولى الاذعان الى رأي الدول غير أن الدولة العليــة امتنعت
من أن تعطيه غير ولاية مصر الوراثية لما رأت من تعضيد دولة الانجليز لها فاصـدر له
السلطان المعظم سـنة ١٢٥٧ هـ فرمانا بولايته على الديار المصرية والاقطار السودانية
مع حق الوراثة عليها العائلته الخديوية وتقرر الخراج السـنوي ستين ألف كيسـة
وأن لا يزيد الجيش المصري عن ثمانية عشر ألف عسـكري يلبسون نفس ملابس
العساكر العثمانيــة وأن كل وال يتوارث الحكومة المصريه يلزمه أن يحضر الى
الاستانة العلية ليتقلد بالوظيفة من يد الذات السلطانية

ثم استعمل محمد على باشا مدة السنوات الاخيرة من ولايته في حسن ادارة البلاد وترتيب
مصالحها الداخلية والتفت بالخصوص لاصلاح أحوال الزراعة والتجارة والصـناعة
ولكن كان ثقل الكبر قد ظهر عليه وضعفت قواه العقلية فوكل مباشرة ادارة الامور الى
ولده ابراهيم باشا واعتزل في سرايته حتى توفاه الله سنة ١٢٦٦ هـ في عهد ولاية حفيده
عباس باشا فتوفي في سكندرية بسراي رأس التين وحملت جثته الى القـاهرة فدفنت
بالقلعة بمسجده الذي بناه في جزء من موضع السراي التي كانت لصلاح الدين

ولما ضعفت قوى محمد على باشا العقلية واعتزل بسرايته تقلد ولاية مصر مكانه من لدن الحضرة السلطانية ولده ابراهيم باشا الذى ولد له بمدينة قوله بعد زواجه بقريبة حاكم مدينة براوسطا بسنتين فتولى ابراهيم باشا سنة ١٢٦٤ ه فى حياة أبيه ولكنه كانت منيته قريبة فتوفى بالقاهرة سنة ولايته بعد أن حكم بضع أشهر ودفن فى مدفن العائلة الخديوية بجوار الامام الشافعى

وقد تقلد ولاية مصر مكانه ابن أخيه عباس باشا ابن طوسون باشا ابن محمد على باشا وكان مولده سنة ١٢٢٨ وكان جده يعزه كثيرا فاعتنى بتربيته ولما قبض على زمام الاحكام بمصر سار على مقتضى العدل والتبصر فحافظ على النظام واستتباب الامن والراحة فى جميع أنحاء البلاد وسهل طرق التجارة بان مد بين القاهرة والاسكندرية أول خط من خطوط السكك الحديدية بمصر وأصلح الطريق بين القاهرة والسويس وأنشأ الخطوط التلغرافية وأسس المدارس الحربية بالعباسية ثم توفى فى سرايته ببنها العسل سنة ١٢٧٠ ه ودفن بالقاهرة فى مدفن العائلة الخديويه

فخلفه عمه محمد سعيد باشا رابع أولاد محمد على باشا وكان مولده سنة ١٢٣٧ ه فاجرى كثيرا من الاصلاحات والتعديلات المفيدة لادارة البلاد فعدل الضرائب واسترجع الاطيان من الملتزمين الى أربابها وطهر ترعة المحمودية وأتم السكك الحديدية والخطوط التلغرافية التى ابتدأها سلفه وساعد كل المساعدة على مشروع حفر قنال السويس ثم توفى باسكندرية سنة ١٢٧٩ ه ودفن بها

فخلفه اسماعيل باشا ابن ابراهيم باشا ابن محمد على باشا وكان مولده سنة ١٢٤٦ ه فبذل مافى وسعه لامتداد التجارة وازدياد الصناعة وتمدن البلاد فملأ أرض مصر بالسكك الحديدية والخطوط التلغرافية وحفر الترع ومد مجارى المياه بشوارع القاهرة والاسكندرية وأضاء شوارعهما بالانوار الغازية ووسع فابريقات السكر التى أسسها سعيد باشا بالوجه القبلى وأسس معمل الورق ببولاق ومعامل البارود والاسلحة الصغيرة بقرب طره ولكنه لم يستعملها وأنشأ الكتبخانة الخديوية التى بدرب

الجاميز والمتحف المصرى الذى كان ببولاق ونقل الآن بسراى الجيزه الخديويه وابتنى المبانى الفاخرة كالاوبرا الخديوية بالقاهرة وتياترو زيزينيا بالاسكندرية وغير ذلك وساعد على انتشار الزراعة ونظم المدارس على أساسات وطيدة وأصول متينة وأسس المحاكم المختلطة للنظر فى الدعاوى بين الاجانب والوطنيين وافتتح قنال السويس بالطريقة الرسمية بحضور جم غفير من أمراء وملوك أوربا وفى سنة ١٢٨٢ هـ نال من الباب العالى خطا شريفا يأذن له بان تكون حكومة مصر وراثية فى عائلته مباشرة وفى السنة التالية نال من انعام جلالة السلطان عبد العزيز لقب خديوى وهو أول من نال هذا اللقب الذى هو أرفع رتب وزراء الدولة ثم جاءه فى سنة ١٢٩٠ هـ الفرمان الشاهانى يخول له كل الحقوق المعطاة لرتبة الخديوية وهى حقوق الوراثة لاول أبنائه والاستقلال بالاحكام الادارية وعقد المعاهدات مع الدول الاجنبية واستقراض القروض وزيادة الجيش أو تقليله بحسب اللزوم وتقدير الجزية التى تدفع للدولة بمبلغ ١٥٠٠٠٠ كيس

ثم ان الاعمال التى أجراها اسماعيل باشا بمصر وان كانت أفادت البلاد بهجة ورونقا وعادت عليها بالمنافع التجارية والصحية الا أنها كلفت الحكومة مصاريف لاقدرة لها عليها فاضطرت الى أخذ السلف من الدول الاجنبية حتى أوجب ذلك تداخل تلك الدول فى أمور المالية فالتزم اسماعيل باشا بتسليم ادارة البلاد الى مجلس نظار دخل فيه عضوان أجنبيان أحدهما فرنساوى والآخر انجليزى ثم رغب التخلص منهما فاسقط تلك الوزارة وأبدلها بوزارة كلها وطنيون فكان ذلك باعثا على اقالته من الحكومة المصرية فتنازل عنها سنة ١٢٩٦ هـ لاكبر أولاده أفندينا المعظم محمد توفيق باشا المولود فى سنة ١٢٦٩ هـ

فلما قام بأعباء الملك هذا الخديوى المعظم ذلل جميع المصاعب الخارجية والمعضلات الداخلية بحزمه وعزمه وابتدأت مصر فى أيامه فى أن تدخل فى دور جديد من السعادة وحسن الرفاهية بعد تخليصها من ديونها بواسطة قانون التصفية ومع حصول الحوادث

المهمة والخطوب المدلهمة أثناء ولاية جنابه العالى كالثورة العرابية والحروب السودانية والامراض الوبائية المعلوم تفاصيل ذلك كله بما يغنينا عن بيانه هنا فانه لم ينفك عن اصلاح البلاد ورفاهية العباد وتشييد دعائم الامان فى أنحاء البلدان وتنظيم المالية والادارة والعسكرية فأسس مجلس الشورى وأمر بانشاء المحاكم الاهلية ليخرج أهلها من الاستبداد ورق العبودية وقد خفف الضرائب على الاهالى وأمر بتقسيط الاموال الاميرية على أقساط عديدة بحسب مواسم المحصولات رغبة منه فى تسهيل دفعها على المزارعين وقد أنشأ كثيرا من الترع والطرق الزراعية لتسهيل المواصلات التجارية وازدياد ثروة البلاد وشيد كثيرا من المدارس وسن لها اللوائح والقوانين التى من شأنها تحسين حالة التعليم وترقى المعارف وخصص المبالغ الوافرة لتحسين حالة الكتبخانة الخديوية وقد ألغى العونة أى السخرة التى كانت حملا ثقيلا على عاتق المصريين من عهد الفراعنة الى الآن وله كثير من المآثر البهية والاخلاق المرضية والفضائل العديدة والمناقب الحميدة التى لا يسع هذا المختصر تفصيلها ثم أدركته الوفاة رحمة الله عليه فمات وهو فى سن التاسعة والثلاثين من عمره فى يوم الخميس ٧ جمادى الثانية سنة ١٣٠٩ ﻫ (٧ يناير سنة ١٨٩٢ م) عقب مرض مكث به سبعة أيام فخلفه على كرسى الحكومة المصرية أكبر أنجاله أفندينا المعظم عباس باشا حلمى الثانى خديوينا الحالى المولود فى غرة جماد آخر سنة ١٢٩٢ ﻫ (١٤ يوليه سنة ١٨٧٤ م) أيد الله تعالى ملكه بالعز والاقبال وأدام أيامه مكللة بالخير والفلاح مؤيدة بالفوز والنجاح آمين


Bibliotheca Alexandrina
03796622